سلسلة قصصية

٧١

سبعة يظلهم الله







دار الهدى للنشر والتوزيع

محمد موفق سليمة

سبعة يظلهم الله

١

إمام عادل

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع

الظُّلْمُ مُرُّ الطَّعْمِ

.. لم يستطعْ أَنْ يصْبرَ على الضَّيم طويلاً، ولم يجدِ النَّـومُ إليـه في ليلتـهِ سبيـلاً ، وتنفَّسَ الصُّبحُ معَـهُ على أرضِ النِّيلِ الطَّيِّبـة ، وأَرسلَتْ خيـوطُ الشَّمسِ إلى أَعماقِ نفسهِ من يُناديهِ قائلاً :

لا يـأْخذنَّ بك الصَّمـتُ بعيداً ، وإيّـاكَ أنْ تطـولَ معَ صمتِكَ السّاعـاتُ ، فيتسرَّبَ اليأسُ إلى نفسِكَ .. وإنَّ ما حدَثَ معكَ عصرَ الأَمسِ ، لَـجـديرٌ أنْ يُـحـرِّكَ معكَ الجبالَ ، لِـتَـسـوقَـها شـاهـدةً إلى حيثُ تنعـمُ بـالعـدالـةِ ، وتتشرَّبُها جوارحُكَ ، ويَطمَئِنُّ إليهـا فؤادُكَ .. قمْ فـالكونُ كلُّهُ ملكُ يَدَيْـكَ ، بل ورهينُ الحقِّ الذي تحملُهُ ، طالما بقيَ في الدُّنيا حاكمٌ مثلُ عمرَ ..

الحقُّ لا يَموتُ

.. وقـادَتْهُ قـدَماهُ حقّـاً إلى راحِلَتِه ، يَغُـذُّ بها السيرَ ، ويَطْوي القفار ، لا يرىٰ أمـامَهُ إلا صورة المدينـةِ المنــوّرةِ تشعُّ بنـورِهــا في الأُفقِ البعيـدِ والقريبِ ، تبتسمُ لهُ عـرائسُ الأمَلِ وهي تقولُ : لا عليكَ أيّها القبطيُّ ، فخليفةُ المسلمين قدْ حرَّمَ الظُّلْمَ أيضاً على أمثالِكَ ، ولن يـرتاحَ لهُ قلبٌ أو يغمضَ لِـعَيْنَيهِ جفنٌ ، إلا إذا خيَّمَ العـدْلُ على الـدُّنيا ومَنْ فيهـا .. وما هي إلا أيّـامٌ حتّى يَنْطِقَ الحقُّ كُلُّهُ إلى جـانبِكَ ، ألَمْ تسمعْ بما سجّلَهُ ذلكَ الخليفـةُ العـادلُ من بَــراهينَ على تلكَ الحقيقـةِ الخالِدَةِ ؟ أَتـُحِبُّ أنْ نضرِبَ لـكَ الأمثلةَ الجليلة أو واحِداً منها ؟! .

العادِلُ مَحَطُّ الاحْتِرام

.. افترَّ ثغرُ المُسافرِ عن ابتِسامةٍ فيها الزَّادُ الكبيرُ عمـّا عرَفَـهُ في هٰـذا المضمارِ .. وقالَ لِعـرائسِ الأملِ الـمُحيطةِ بهِ :

لقدْ سمعْتُ بِأحلاها وأعظمِها .. وكُلُّ الأمثلةِ لديَّ تحملُ صورةَ الجلالِ والعظَمَةِ ، ولو لمْ أكنْ قدْ عرَفْتُ لَـما تَجَشَّمتُ الصِعابَ ، وقطعْتُ المسافاتِ الطّويلةَ ..

.. أجلْ .. ومَنْ حفظَ عنْهُ التّاريخُ كما حفِظَ عن عُمَـر !؟ عمـرُ الـذي يبكي قلقـاً على شـاةٍ ضلَّتْ الطَّريـقَ ، أو زلَّتْ بها القدمُ على شاطـىءِ نهرٍ بعيدٍ ، وهـو الـذي يحملُ على ظهـرهِ ألـوانَ الطَّعـامِ لِيَصنعَ للجياعِ من الصّبيةِ في بيتٍ شـاردٍ طبقاً شهيّاً .. وهو نفسُهُ مَنْ هـدَّدَ سيّداً سرقَهُ خادمُهُ لِيُسْكِـتَ جَوْعتَهُ : (إذا سرقك ثانيةً فسأَقطعُ يدَكَ لا يدَهُ) .

البَسْمَةُ مِفْتاحٌ

.. وحطَّت بهِ الرَّاحِلَةُ أخيراً على بابِ المدينةِ .. وبعدَ اسْتِراحةٍ خفيفةٍ ، أرشدَهُ النّاسُ إلى المسْجدِ حيثُ الحاكمُ ومجلِسُ القضاءِ . فذهبَ ودخلَ على استحياءٍ ، وهو لا يدري صِفاتِ الحاكمِ أو صورتَهُ .. وحتّى لو عرَفهُ ، فكيفَ يُحاكيهِ ومن أين يبدأُ .. ؟ وهلْ سيَشعُرُ بِخوفٍ أو رَهبَةٍ أمامَ ذلكَ الرّجلِ الذي خضعتْ لهُ الدّنيا طائعةً .. ؟ .

كُلُّ هٰذهِ الأسئلةِ قطعَها أميرُ المؤمنين بحُسنِ تَصرُّفِهِ .. فلقد رأىٰ في وجهِ المسافرِ آثارَ تعبٍ وشكوى .. وأَحبَّ أنْ يُخفّفَ عنهُ همَّ السَّفرِ والقلبِ واللّسانِ معاً ، فاقتربَ منهُ مُبْتَسِماً : أهلاً بالضَّيفِ الكريمِ ، وستجدُ شكواكَ عندي أُذُناً صاغيةً ، هاتِ ما عندكَ ..

لا حيرَةَ أَمامَ العَدْلِ

.. استردَّ القبْطيُّ أنفـاسَهُ ، وشعـرَ بالـدِّفءِ يسري في عروقِهِ، وذاقَ حلاوةً ما عرَفَها من قبل.. وأدركَ أنَّ الذي رَحَّبَ بِهِ هـوَ الخليفةُ نفسُهُ .. ما أصغرَكِ أيّتُها الدّنيا وأنت تَرْكعينَ أمـامَ نظراتِ الفِـراسةِ والحبِّ والطمـأنينةِ ! .. و لا حيرةَ بعـد الآن ، وهاكَ شكوايَ يا أميرَ المؤمنين ..

وجلسَ النّـاسُ يستمِعون إلى ذلـكَ المسافـرِ الذي حملَ فُؤادَهُ الباكي بين يدَيْهِ ، وأحسُّوا كأنّهم يرونَ الحادثـةَ في حينها ، لا ينقصُ الشريـطُ منها شيئـاً .. وكُلٌّ منهم شـاخصُ البصرِ مـرهَفُ السـَّمعِ ، فما الـذي حكاهُ المظلـومُ يـا تُـرى في مجلسِ القضاءِ العادِلِ؟ .

الكلامُ الواضِحُ بيِّنةٌ

قالَ القبطيُّ : ساحةُ المباراةِ على أتمِّ استعدادٍ أيّها الخليفةُ ، وميدانُ السِّباقِ قدْ أحاطَ بِهِ حشْدٌ كبيرٌ من المتفرجين ، وأحببتُ أنْ أُدليَ بدلوي بين المتسابقين ، وجاء دوري بالسِّباق معَ ابنِ والي مِصْرَ، وكنتُ الأولَ بِهِمَّتي وجِدّي ، وآنَ الأوانُ لكي يُذاعَ اسمي فائزاً ماهِراً فاقَ كُلَّ المتسابقين ، ولكنَّ الذي حدثَ يا أميرَ المؤمنين لمْ يكنْ في الحسبانِ ..

وهنا توقَّفَ القبطيُّ عن السّردِ ، وأمْسكَ دمعتينِ كادتا أنْ تَسْقطا من عَينَيهِ المغرورقتينِ ، فاقتربتْ يدُ الخليفةِ تُواسيهِ ، وتطلبُ منهُ إتمامَ الكلامِ حتّى يقفَ الجميعُ على بيِّنةٍ منَ الأمرِ ، ويُقْضى بالحقِّ لا سِواهُ ..

الظُّلْمُ أشَدُّ جُرْحاً

.. والحقُّ يُقالُ : إنَّ في عَبَراتِ المشتكي تمام الحكايةِ ..

تابعَ القبْطيُّ قَوْلَهُ : ما أحسَسْتُ أيّها الأميرُ إلا ودرّةُ ابنِ الوالي تنْهالُ موجِعَةً على رأسي ، وكأنّها قدْ فقدَتْ سيطرةَ حاملِها ، ويا ليتَ الأمرُ وقفَ عندَ هذا الحدِّ ، بلْ إنَّ الدرَّةَ قد نطقَتْ بالظُّلْمِ من جديدٍ على لسانِ الظّالمِ تقولُ لي : أَتسْبِقُني وأنا ابن الأكرمين ؟ .. و ما كنتُ لأعرفَ أنَّ سبْقي لهُ سيجرحُ كرامتَهُ ..

ولمْ يتمالكِ المجلِسُ أنفاسَهُ مِنْ أنْ يُردِّدَ معَ عمرَ في صمتٍ غاضبٍ: أيَّةُ كرامةٍ جريحةٍ هذهِ؟! بلْ أيُّ كبرياءٍ وظلمٍ حملهُ ابنُ الأكرمين في درَّتهِ وكلامِهِ ؟ .

كُلُّ غَدٍ قريبٌ

ونهضَ عمرُ واقِفاً لا يرى في الأرضِ قراراً لغضَبِهِ.. وارتسمَ التّأثُّرُ بأعمقِ آياتِهِ على وجههِ، ونظرَ في الأُفقِ البعيدِ كمنْ يُحَدِّثُ واليَ مصرَ :

أوَ تفعلُها يا بنَ العاصِ وتسكتُ عن ظُلمِ هذا القبطيِّ ؟ أوَ لكَ طاقةٌ بالصّبرِ غداً أمامَ ميزانِ أحكمِ الحاكمين ؟ ثُمَّ نظرَ في وجهِ المظلومِ قائلاً : رويدكَ أيّها الرَّجلُ .. ستأخذُ حقَّكَ بيدِكَ، ولْتكنْ ضيفاً كريماً في المدينة ريْثما يحضرُ والي مصرَ معَ ابنهِ..

.. والتفتَ إلى أحدِ الصّحابةِ الذين كانوا في المجلسِ يَطلبُ منهُ الكِتابةَ إلى عمرو بنِ العاصِ بالحضورِ معَ ابنهِ فورَ وصولِ الكتابِ إليهِ ..

وللعيونِ كلامُها

.. وأحَسَّ القبطيُّ أنَّ بيـوتَ المدينةِ كلَّهـا قدْ فُتِحتْ لـهُ لِيحلَّ بها ضيْفـاً عـزيـزاً ، وأنَّ قلـوبَ أهلِها قدْحكمَتْ لهُ بالحقِّ قبلَ أنْ يُنهيَ كلامَهُ ..

وينزلُ الخبرُ على عمرِو بنِ العاصِ ثقيلاً ، ولكن لا مناصَ من أن يَطوي القفارَ بجوادِهِ دون تأخُّـرٍ ، خشيـةَ أن تُمسيَ الحكـايــةُ ظُلُماتٍ من حولـهِ.. وها هوذا يسيرُ مُسْرِعـاً برفقةِ ابنـهِ ـ ابنِ الأكرمينَ ـ ، ويصلُ مسْجدَ المدينةِ على كُرْهٍ منهُ .

.. ومــــا أنْ رآهُ أميرُ المؤمنينَ حتّـى نَشَرتِ المحـاكمةُ أطـرافها بحضورِ القبطيِّ المظلـومِ ، وفهِمَتِ النّظـراتُ حــواراً لا تفهمُـهُ الألسنــةُ والقلـوبُ ، وعـلا الحقُّ واضِحاً جليّـاً أمـامَ كُلِّ الحواسِّ ينطقُ بالحكمِ ..

الاسْتِعبادُ أكْبرُ الظُّلْمِ

.. ورفعَ عمرُ درّةً كانتْ تُرافقهُ ، وأعطاها للقبطيِّ أمامَ حشْدٍ كبيرٍ ـ أيضاً ـ ووسطَ ميدانٍ ما عَرفَ إلا العدالةَ رائداً ، وقال : خُذْ درّتي واضربْ بها رأسَ ابنِ الأكرمين .. ولْيَعرِفِ الظّالمُ مَنْ هوَ ابنُ الأكرَمينَ في ميزان الحقِّ والإسلامِ . ثُمَّ التفتَ إلى والي مصرَ قائلاً بغضَبٍ ملأَ ساحةَ الحكمِ : يا عمرو ، متى اسْتعْبدْتُم النّاسَ وقدْ ولَدَتْهم أُمهاتُهمْ أحراراً ؟!!

وتردَّدَ صدى الخلودِ معَ هٰذهِ الكلِماتِ في أرجاءِ الكونِ كُلِّهِ ، وكأنّها تقولُ للقبطيِّ : أوْجِعْ بضربِكَ ـ أيضاً ـ رأسَ الوالي ولا تأخذْكَ بهما شفقةٌ ..

العَدالةُ فوزٌ آخَرُ

.. بورِكَ بدِينٍ يحملُ بـذورَ بقائِهِ .. وبورِكَتْ درَّتكَ يـا أميرَ المؤمنينَ .. ومـا خـابَ مَنْ بثَّكَ شكـواهُ وحزنَـهُ ، ما جئـتُ ـ واللهِ ـ شامتاً ، ولا لأجعلَ الدّمَ يسيلُ على رأسِ ظالمي كما سالَ على رأسي بضرْبتِهِ ، ولا لأصبَّ عليـهِ وابلَ الشّتائمِ ، وكفـاني أنّي قدْ سبقْتُـهُ الآنَ مـرّتينِ ـ بالفـوزِ في ميدانِ السّباقِ ، وبالحقِّ في ميدانِ العدْلِ ـ .. وما أرىٰ أُمّتَكم بفانيةٍ طالما بقيَ فيها مثلُكَ يا عمرُ ..

ومـا أُحِبُّ لي بإمساكِ درّتِكَ أن تكـونَ ليَ الدّنيـا وما فيهـا ، لقدْ أحسَسْتُ أنّي ملكتُ كُلَّ شيءٍ .. فجروحُ رأسي قـدِ التأَمتْ ، ونـورُ العدْلِ قـدْ ملأَ جوانحي ، وسكنَ فؤادي إلىٰ الأبدِ ..

الظّالمُ لا ينامُ

وعادَ القبطيُّ ترقصُ العرائسُ معهُ مُحيّيةً ومُرافقةً، تُذكّرُهُ بقصّةٍ لعلّهُ لمْ ينسَها تمامَ النّسيانِ، يومَ جاءَ رسولُ كسرى إلى المدينةِ يسألُ عن قصرِ الخليفةِ، فدلّوهُ على الخليفةِ نفسهِ حيثُ لا قصورَ ولا عبيدَ .. لا يُحيطُ بهِ إلا الهيبةُ والجلالُ، ينامُ بعدَ تعبٍ شديدٍ، مُتَوسِّداً درّتَهُ، آمِنَ على نفسهِ من غيرِ حراسةٍ، وزلزلَ الأرضَ تحتَ ملوكِ الأرضِ من غيرِ عرشٍ .. وأمامَ هٰذا المشْهدِ لمْ يتمالكْ حاملُ الرّسالةِ أن يقولَ دون إكراهٍ : عدَلْتَ، فأمِنْتَ، فَنِمْتَ ..

ما أروعَ العدلَ إن شقَّ طريقَ الأمانَ، وما أحلىٰ الأمانَ عندما يبني دنيا السعادةِ والرّخاءِ !..

هَلُمَّ إلينا يا عُمَرُ

.. وليتصوّرْ كُلٌّ منّـا يا أحبَّتي أن يعـودَ عُمرُ الفاروقُ في شخصيّةِ حاكمٍ يرسمُ دربَ الحضارةِ الآمنةِ ، ولا تُخْفـوا عليَّ إن كانتْ أفئـدتُكمْ تحملُ بينَ جـوانِحِها حُبَّ الاستظـلالِ بالعـدلِ ، حتّىٰ يُرافقكـم الظلُّ إلىٰ يومِ القيـامةِ شـاهداً ، ويسيرَ بكم إلىٰ ظلٍّ أبقىٰ وأكثرَ خلوداً ، إنَّهُ ظلُّ العرشِ.. يُطلُّ منهُ المستظلّون على ساحةِ العدالَةِ كلِّها .

ويحملُ كـلُّ مَنْ فيهـــا أعمالَهم تحتَ لهيبِ الشَّمسِ المحرقَـةِ .. وينعمُ الإمامُ العادلُ بـالبُعدِ عن اللَّهبِ الحارقِ .. وما جاءَهُ النّعيمُ إلا مُكافأةً ربّانيّةً ، لأنّهُ جعلَ العدْلَ أساسَ مُلكِهِ ..

طوبى لكَ يا عُمـرُ .. وطوبى لكلِّ عمرَ مِنْ بعْدِكَ ..

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَىٰ لِلنّشر والتّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

قِصَصٌ تَتَكَلَّمُ



سبعة يظلهم الله

(٢)

وشاب نشأ في عبادة الله تعالى

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع



تاريخُنا حافِلٌ بالرَّوائعِ

كانتِ الابْتسامَةُ لا تُفارقُ ثغْرَ وائلٍ ، والفرحةُ تملأُ فؤادَهُ ، ويتنفَّسُها صدرُهُ وهوَ يقولُ : لقدْ أتْحفَنا المعلِّمُ اليومَ بأربعِ حِكاياتٍ ممتعةٍ ، كُلٌّ منها لهُ طعمٌ يَتفرَّدُ بِهِ ، وتجمعُ بينها حلاوة الإيمانِ :

فزيْدُ بنُ حارثةَ ترعرعَ في بيتِ رسولِنا محمّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ورفضَ أنْ يعودَ إلى أهلِهِ ووطنِهِ في اليمنِ. وعليُّ بنُ أبي طالبٍ آثرَ النَّومَ في فِراشِ النُّبوَّةِ ليلةَ الهجرةِ مُضحِّياً بروحِهِ الشّابَّةِ . ومُعاذٌ ومُعَوّذٌ أخوان صغيرانِ أبى كُلٌّ منهما إلا أنْ تكونَ لهُ يدُ السَّبْقِ في قتلِ فرعون هٰذهِ الأُمَّةِ الذي كنّاهُ النّبيُّ ﷺ بأبي جهلٍ لِعدائِهِ الشَّديدِ لِدينِنا . وعائشةُ بنتُ أبي بكرٍ الصّدِّيقِ نشأَتْ صِدِّيقةً وابنةَ صِدِّيقٍ ، عالِمةً بأُمورِ الشَّرعِ الرَّبانيِّ الحكيمِ.

وللشَّبابِ طريقُهُ

إنَّهُ شريطُ ذكرياتٍ حـديثةِ العهدِ ، فوائلُ قدْ عادَ منَ المدرسةِ قبلَ قليلٍ ، ومنْ طريفِ الأَمرِ أنَّ إشراقَةَ وجهِهِ لمْ تُفارِقْـهُ سريعةً ، فكلُّ جارحةٍ منْ جوارِحِهِ تنطقُ بالفرحةِ والمُتعةِ ، وبِعهدٍ جديدٍ معَ اللهِ تعالى أنْ يكونَ في شبابِـهِ بلْ ومِنَ اليوم ناشئاً في طاعةِ اللهِ تعـالى وفهمِ الإسلامِ .. ولٰكنْ أنّى لهُ ببيتٍ مثـلِ بيتِ النبـــوَّةِ ، أو بأبٍ كـأبي بكــرٍ الصِّـــدّيقِ ؟ وكيفَ يستطيـعُ أنْ ينتقيَ عـــدوّاً كفرعونِ أمَّتِنا ؟ وهلْ تعودُ الهجرةُ من جديدٍ فينامَ في فِـراشٍ نـامَ فيـهِ أشجعُ الفتيـانِ عليٌّ رضيَ اللهُ تعـالى عنـهُ وعنْ زيدٍ ومُعـاذٍ ومُعـوّذٍ ؟ ومنْ أينَ يحصلُ على عِلْمٍ كالـذي سَمَتْ بهِ عـائشةُ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنها ..

وِلِكُلِّ سؤالٍ جوابٌ

هٰذهِ الأسئلـةُ وغيرُها كـانَ يتوهَّـمُ وائلٌ فيها أكبرَ العَقَبـاتِ ، ولمْ يكنْ عـالِماً بـالحقيقـةِ كيفَ تصِلُ إلى قلبِهِ، وبالنَّشأةِ الصَّالحِةِ كيفَ يجدُ إليها سبيلاً وسُلَّماً ؟

وانتابَهُ قَلَقٌ كبيرٌ في ليلتِهِ ، وأحسَّ المُعلِّمُ في الأيّامِ التّاليةِ أنَّ الحيرةَ قدْ أحاطَتْ بوائلٍ في الصَّفِّ والباحةِ وهـوَ يُفكِّرُ ، وكثيراً مـا رأى في عينيهِ تسـاؤلاً يستحي منَ البَوْحِ بـهِ .. لِذلكَ راحَ يُحببُ لطالِبـهِ أنْ يتحدَّثَ عمّـا يجيشُ بهِ صدرُهُ .. وأخيراً تحدَّثَ وائلٌ :

هلْ لي يـا مُعلِّمي الكـريمِ أنْ أصِلَ إلى درجـةِ أبطالِ الحِكـاياتِ الأربعَـةِ التي قصصتها علينـا منذُ أيّامٍ ؟ لقدْ شوَّقْتَني لأحلى النَّشأةِ وإلى شبابٍ كلُّه خيرٌ وصوابٌ ..

أوَّلُ الغَيْثِ قطرَةٌ

ابتسمَ المُربِّي في وجـهِ السّـائلِ الصَّغيرِ ذي الشَّوقِ الكبيرِ ، وربَتَ على كتفهِ بيـدٍ حانيةٍ يزرعُ فيها الدِّفءَ والأملَ والعطاءَ معاً :

بوركْتَ يا وائلُ .. وبوركَ أمثالُكَ ، ولكَ منّي أجملُ النُّصحِ طـالما أراكَ في المدرسـةِ ، ولنْ أبخلَ عليكَ وعلى رُفقائِكَ في الصَّفِّ بأصغرِ فائدةٍ ..

وبدأَ وائلُ يشقُّ بعقلِهِ المُتفتِّحِ طريقَ السَّعادةِ الحقَّةِ ، ويفتحُ أبوابَ الخيرِ والصَّلاحِ بـاباً باباً .. وإنَّ أوّلَ ما فهمَـهُ منَ الأمرِ أنَّ عملَـهُ كلَّهُ يُمكنُ أنْ يكـونَ في عِبادةِ اللهِ تعـالى .. وطـاعةِ أوامـرِهِ . ونِعْمَ المدْخلُ تفكيرٌ سليمٌ وإرشادٌ واعٍ ..

﴿ اِقرأْ ﴾ أغلىٰ نصيحةٍ

والأجملُ منْ هـذا كلِّـهِ أنَّ وائلاً كـانَ يُشجِّعُ أُختَهُ التّوأمَ ـ براءةَ ـ على أنْ تحذوَ حذوَهُ في النَّشأةِ الحلوةِ. فها هوَ ذا قدْ خصَّـصَ معها وقتاً لدراسةِ كلِّ مـا يجلبُ لهما الـدَّرجـةَ الأُولى في المدرسـةِ ، فالمؤمنُ والمؤمنـةُ لا يتركانِ هٰذهِ الدرجـةَ السّاميةَ لِغيرِهما ، ولا يطلبانِها حسـداً وحُبّاً في زوالِها من أيدي الآخرينَ ..

وما أحلى التَّقديراتِ الشّاكرة قدْ توشَّحتْ بها دفاترُهما !! ومـا أغلى نظراتِ الاحترامِ والحُبِّ من أُسرةِ التَّعليمِ والتَّربيةِ !!.. ومـن أجلِ هٰذا السَّيرِ المُبـاركِ أحبَّتْهُما كلمـةُ ﴿ اقـرأْ ﴾ أوَّلُ نصيحـةٍ خـالِـدَةٍ نزلَتْ مِنَ القـرآنِ الكـريم ، وأحبَّهـا كلٌّ منهُما ، ورأىٰ فيهاعِطراً ربّانيّاً لا يزولُ ..

وللخُلُقِ العظيمِ سِماتٌ

.. وكثيراً مـا عـانقَتْهُما الملائكـةُ في صـلاتِهما الخاشعةِ ، وفي تقرُّبِهِما إلى اللهِ تعالى بِنـافلَةٍ في آناءِ الليلِ .. يقـرأُ الواحـدُ منهُما في رَكعَتينِ بعضَ مـا حفِظَهُ من آياتِ الكتابِ المُبينِ ، فتسمو بِهِ آياتُ التَّدبرِ إلى أعلى علِّيين ، وما أجملَ أصواتِ البلابلِ تُحاكي صوتَهما بِصمتٍ وهما يُـرتِّلانِ سورةً صغيرةً قُبيلَ الفجرِ ، أوْ قبلَ أنْ يركَنا إلى النَّومِ !! ..

وكبرَ الأخُ المؤمنُ مـعَ أُختِـهِ المؤمنـــةِ ، ونما عقــلاهُما نُمــوّاً مــا عهِــداهُ مــنْ قبل ، وانتقلَ المتفوِّقـانِ إلى صفٍّ أعلى ، وقطفا ثمـراتٍ أنضجَ وأشهى ، وكأنَّ الدَّرجـةَ الأُولى لمْ تُحبَّ سِواهما في الفتـوَّةِ والشَّهـامةِ ، وأكـرِمْ بكلِّ خصلـةٍ حميـدةٍ تَعلَّقتْ بهما دونَ تردُّدٍ !! ..

.. خُذِ الكِتابَ بِقوَّةٍ ..

والكونُ كلُّهُ يشهدُ معَ الملائكةِ أنَّ إغراءاتِ مرحلةِ الشَّبابِ لمْ تتركْ سبيلاً إلا وسلكتْهُ حتّى تدخلَ إلى قلبِ وائلٍ وبراءةَ، وما أفلحتْ، ولن تُفلحَ، فالمبصرُ الذي عاهدَ اللهَ على بصيرةٍ لن يتراجعَ ولو عُبِّدَتْ لهُ طريقُ الشَّهواتِ، والشّابُّ الذي تمسَّكَ بأسبابِ الفلاحِ خيرٌ مائةَ مرَّةٍ منَ الإنسانِ الهَرِمِ الذي تابَ في آخرِ عُمُرِهِ بعدَ أن غزا الشَّيبُ مفرقَ رأسِهِ .. وحَنَا التَّقوّسُ ظهرَهُ ..

لقدْ غَدا نورُ الإيمانِ مُرافِقاً للبطلِ وأُختِهِ، يؤولُ إلى وائلٍ بعدَ أنْ يُغذّي بهِ قلوبَ الآخرينَ، ويُردِّدُ معَ براءةَ كلَّ يومٍ أنَّها تحملُ أسمى آياتِ البُرْءِ والطَّهارةِ.

القُرآنُ يتحرَّكُ أيْضاً

.. والبيتُ والحيُّ والمدرسةُ مرابعُ ثلاثةٌ كانتِ الرِّيـادةُ فيها للأخـوينِ التَّوأمينِ اللَّـذين برِئا منَ الـذَّنبِ ، وفـارقَهُما الشَّيطانُ يـائساً من نفسَيْهما وقلبَيْهِما ، وما أتتِ السَّنةُ الثّـامنةُ عشرةَ حتّىٰ كانَ الشَّبابُ قدْ كمُلَ ، والفُتوَّةُ قدْ سلَّمَتْ لهُما القِيادةَ بكلِّ أركانِها ومن جميعِ أطرافِها ..

لِـمَ لا والقرآنُ الكـريمُ قدْ سكنَ فـؤادَيْهما ، وسيرةُ المُصطفى الحبيبِ صلَّى اللهُ عليـهِ وسلَّمَ قدْ عشِقَتْ سلوكَهما ، وحياةُ جيلِ الصَّحـابةِ الكرامِ قدْ عادتْ للظهورِ ثـانيةً في شخصيَّتَيْهِما .. وفوقَ هٰذا كلِّـهِ دخلا بـابَ التَّخصُّصِ العِلميِّ فلانَتْ لهُما الحضارةُ في أوسعِ قواعِدِها ؟ .

الشَّبابُ يبني الحضارةَ

.. وما أسماها مِنْ طاعةٍ للهِ تعالىٰ عندما تخرَّجَ وائلٌ بعدَ أربعِ سنواتٍ منَ الدِّراسةِ العُليا رائداً اجتماعيّاً يُربِّي مَنْ يحفظُ للعلمِ قدرَهُ، ومَنْ يُعيدُ لِزَيْدٍ وجودَهُ، ويَخيطُ فِراشَ النُّبوَّةِ والهجرةِ إلى اللهِ تعالىٰ، ويصنعُ السِّكِّينةَ الحادَّةَ التي تقضي علىٰ أعتىٰ الفراعنةِ وأشدِّهمْ جَهالَةً ..

ولا تسألوا عنْ براءةَ فهيَ لَمْ تدَّخرْ جُهداً لِتلْحقَ بِرَكبِ أخيها وسطَ بناءِ أُسرَةٍ جديدةٍ تظهرُ فيها عائشةُ الصِّدّيقةُ والعالِمةُ من جديدٍ، فهيَ الزَّوجةُ الشّابَّةُ والأُمُّ الحكيمةُ، تقولُ للعالَمِ كُلِّهِ: عندي أكبرُ مدرسةٍ وأروعُ حاضِنةٍ.. وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحتَها لِكُلِّ مَنْ يَطْلُبُ العِلْمَ مِثلي ..

لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ

.. وكلَّلَ التَّوأمانِ عبادتَهُما بنشيدٍ فيهِ العبوديَّةُ الخالِصةُ : لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيكَ ، لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيكَ ، إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والمُلكَ ، لا شريكَ لكَ ..

لقدْ كانَ ذلكَ حُلْمَ الشَّبابِ وقدْ تحقَّقَ، فبراءةُ قدْ دعَتْ أخاها وائلاً لمُرافقَتِها وزوجها إلى بيتِ اللهِ الحرامِ ، حيثُ الطَّعمُ الجديدُ لحلاوةِ الإيمانِ .

وجميلٌ بالمرءِ أنْ يُتوِّجَ شبابَهُ وعِبادَتَهُ للهِ سبحانَهُ وتعالىٰ بِهذا النَّشيدِ الخالِدِ ، ولو لمْ يستطعْ إلى الحجِّ سبيلاً ، فاللهُ تبارَكَ وتعالى يُحِبُّ من عبدِهِ تِلكَ النَّغْمةَ الصّافيةَ ، وذلِكَ الإيقاعَ الطّاهرَ العَذْبَ ، ينسابُ بينَ الصّدورِ ، وتتناقلُهُ الألسنةُ مُردِّدةً باسمةً .

« فاظْفَرْ بِذاتِ الدّينِ .. »

.. ولمّا عادتْ براءةُ معَ ركبِها ، أحسَّتْ أنَّ مسؤوليَّتها لمْ تنتهِ ، فكما أنَّها أحسنَتِ اختيارَ الزَّوجِ ذي الخُلُقِ والدّينِ ، عليها اليومَ أنْ تبحثَ للحاجِّ الشّابِّ الذي آخاها منذُ نعومةِ الأظفارِ عنْ زوجةٍ ذاتِ دينٍ يظفرُ بها .. وبِذلكَ تكتملُ صورةُ التَّوأمِ في أخيهِ ، ولكنْ مَنْ صاحبةُ الفوزِ بهذا الشّابِّ المؤمنِ ؟ أتُراها قريبةً منهُ وهوَ لا يدري ؟ أم أنَّها تحلُمُ بالزّواجِ منهُ فهوَ نِعْمَ الزَّوجُ وخيْرُ منْ يعرفُ للمرأةِ قدرَها وحقَّها ؟.

هيّا يا براءةُ ، لا تبخلي على أخيكِ بتنفيذِ هٰذهِ الرَّغبةِ ، ولكِ الشُّكرُ وتحيّةُ التَّقديرِ والعرفانِ بالجميلِ ..

﴿ الطَّيِّبونَ للطَّيِّباتِ .. ﴾

.. وبـدَتِ العــروسُ في أحلى زِينـةٍ لها ، وإنَّها لَنِعْمَ الهدِيَّةُ أن تكـونَ عروسُ وائلٍ هيَ ابنـةُ مُعلِّمِهِ الـذي رعاهُ في صِغَـرِهِ . ومـا أحلاهـا من مُكـافأةٍ خبّأهـا لهُ عـالمُ الغيْبِ في ثنـايـا صَفحاتِ اللَّـوحِ المحْفوظِ !..

ودخلَ العــروسـانِ الشّـابّـانِ بيتَهُما ، وحفَّتْهُما السَّعادةُ فَرِحَةً معهُما ، ورأى وائلٌ في عـروسِهِ أصدقَ صورةٍ للتَّربيةِ الإسلاميَّةِ الكاملةِ ، لِـمَ لا والعروسُ ابنةُ من زرعَ في نفسِهِ الصُّورةَ نفسَها؟ . وليسَ غريباً على المعلِّمِ المؤمنِ الــذي أنشــأَ وائلاً أنْ يُنشئَ في مدرستـهِ الأُولىٰ ـ البيت والأُسرة ـ بنتـاً صالِحَةً تليقُ بالشّـابِّ الذي نشـأَ في طاعـةِ الله تباركَ وتعـالىٰ .. ولنْ يليقَ بِذاتِ الدِّينِ إلا هٰذا الشّابُّ الكاملُ ..

لِنسْتَظِلَّ معاً

.. تعالوا معـاً الآنَ لِنعودَ إلى أنفسِنا ، ولنترِكِ العروسينِ يَنْعَمانِ بـالفرحـةِ ، وسنرسلُ لهُما بطـاقة تهنئةٍ غاليةٍ ، قدْ حفِظْناها مِنْ رسولِنا الحبيبِ ﷺ تقولُ :

« باركَ اللهُ لكما وعليكُما، وجمعَ بينكُما في خيرٍ»،

ولْنرفعْ أيدِيَنا إلى اللهِ جلَّ جـلالُهُ ضارعينَ إليهِ أنْ يجعلَ نشْأتَنـا خيرَ نشأةٍ في صِغَرِنـا وشبابِنـا وكلِّ سنواتِ عُمُرِنا ، حتّىٰ نلقىٰ الفِرْدَوسَ في استقْبالِنا يومَ القِيامَةِ بعـدَ أنْ نستريحَ في مكانِنا المُخصَّصِ لنا في ظلِّ اللهِ تعالى يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ.

اللهمَّ آمين .. اللهمَّ آمين.. بفضلِكَ ورحمتِكَ يا ربَّ العالمين .

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَىٰ لِلنّشرِ والتّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

حَدِيقَةُ الذِّكْرَيَاتِ



سبعة يظلهم الله

٣

ورجل قلبه معلّق بالمساجد

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع



أكْرِمْ بِسعادةِ الدّارَيْنِ !

.. اسمُـهُ سَعيـدٌ ، وقدْ كـانَ سَعيـداً حقّـاً ، وسعـادتُهُ من نَـوعٍ يسمـو علىٰ الأنواعِ الأُخـرىٰ كلِّها، والسَّببُ في ذٰلكَ أنَّهُ عرفَ البابَ الحقيقيَّ الذي يُحقِّقُ لهُ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ معاً .

ولقـدْ رافقَهُ اسمُـهُ دليلاً واضِحـاً على مُسمّاهُ ، وغـدا واحداً من الـذينَ يُـدْخِلونَ ما يَملِكونَـهُ إلى قُلوبِ الآخرينَ دونَ أنْ يَنْقُصَ ذٰلكَ من ملكِهِ شيئاً.

وباتَ الجميعُ في المدينةِ المُنـوَّرةِ يعرفونَ لَقَبَهُ وحلاوةَ إيمانِـهِ .. فكلَّما ذُكِرَ عالِمُ المدينـةِ وفقيهُها أدركَ السّـامعُ أنَّـهُ سَعيـدُ بنُ المُسيّبِ لا محالـةَ ، وأكْرِمْ بهٰذا اللَّقبِ وبصاحبِـهِ الذي حمَلَهُ أربعينَ سنةً كاملَةً !! .

الذَّهبُ الحضاريُّ مِيزانٌ

ولا جَرَمَ إنْ خلّدهُ سِجلُّ التاريخِ بذٰلكَ ، فهوَ أهلٌ لِكُلِّ خيرٍ ، والخيرُ كلُّهُ أهلٌ لهُ ، ولا غرابةَ إنْ أحَبَّهُ الكونُ أربعينَ عاماً ولا زالَ يُحِبُّهُ بعدَ وفاتِهِ ، ولِمَ لا وهوَ من أبرزِ سادةِ التّابعينَ ، بلْ وهوَ الوحيدُ الذي أعطاهُ عُلماءُ عصرِهِ وأقطابُ الفكرِ الإسلاميِّ الرَّقمَ الأوَّلَ في السلسلةِ الذَّهبيةِ الثُّلاثيَّةِ ، « فسعيدُ بنُ المُسَيّبِ وابنتُهُ وصِهرُهُ عبدُاللهِ بنُ أبي وداعةَ » ثلاثةٌ اجتمعتْ فيهمْ ولانتْ لهم صِفاتُ القرابةِ والعلمِ والأُسوةِ الحسنةِ ، فجديرٌ أنْ تُسطَّرَ أَسماؤهم بِأنْفَسِ المِدادِ الذَّهبيِّ .. ولقدْ آنَ الأوانُ لِنعرفَ سِرّاً عظيماً من أسرارِ شخصيَّةِ عالِمِنا سَعيدٍ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ..

.. وكفى باللهِ شَهيداً

.. إذا دخلْنا مسْجِدَ رسولِ اللهِ مُحمّدٍ ﷺ نسألُهُ عنِ السِّرِّ الأوّلِ ، لقالَتْ لكُمْ جدرانُ المسجدِ وأرضُهُ ونسَماتُ الهواءِ فيهِ : ما عرفنا رجُلاً صلى في هٰذا المسجدِ أربعينَ سنةً مُتتابِعةً ما فاتَتْهُ صلاةُ الجماعةِ غيرَ سعيدِ بنِ المُسَيّبِ ، الصَّفُّ الأوّلُ يشهَدُ لهُ بِذلكَ ، والمِحْرابُ ، وكفى باللهِ شهيداً ..

المساجِدُ بيوتُ اللهِ تعالى ، واللهُ سبحانَهُ يُحِبُّ العبدَ الذي يزورُهُ في بيتِهِ ، ويُكرِمُهُ بِكَرَمٍ ربّانيٍّ عظيمٍ ، لأنَّ هٰذا الزّائرَ أكْرَمُ ضَيْفٍ على صاحبِ البيتِ .. وسَعيدُ بنُ المُسَيّبِ أحَبَّ بيتَ اللهِ فأحبَّهُ اللهُ تعالى ، وشهِدَ على حُبِّ المُتحابّينَ مسْجدُ رسولِ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

نِعْمَ الكريمُ اللهُ

ولِسانُ حالِ كُلٍّ منّا يقولُ الآنَ : أكرِمْ بالزّائرِ والشّاهدِ معاً في بيتِ الكريمِ ! وأعْظِمْ بِأجرِ مَنْ تعلَّقَ قلبُهُ باللهِ سبحانَهُ من خِلالِ الشَّوقِ العظيمِ لِدخولِ بيتِ اللهِ والبقاءِ فيهِ !! ومَنْ يكرهُ مائدةً كُلُّ أطباقِها نورٌ ووحدانيَّةٌ ، وآياتٌ قرآنيَّةٌ في ركَعاتٍ مكتوبةٍ أو نافلَةٍ ، وأحاديثُ تُتلىٰ عنْ جيلٍ رَضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ .. ؟

لقدْ بدأ سعيدٌ حياتَهُ وختمَها بِحُبِّ بيتِ اللهِ ، فلا بيتَ مثلُ بيتٍ أُسِّسَ على التَّقوى ، ولا حُبَّ مثلُ حُبِّ سعيدٍ يتجلَّى في النَّظرةِ الحقَّةِ ذاتِ الصَّوابِ الرّائدِ .. أتدرونَ كيفَ كانَ هٰذا الحُبُّ وكيفَ تجلّى ؟ ومِنْ أينَ أتَتْهُ هٰذهِ الرَّوعةُ السّاميةُ؟ .

المسلمُ قرآنٌ يتحرَّكُ

كُلُّنـا يعلَمُ يـا أحبَّتي أنَّ رسـولَنـا محمَّـداً وصحـابتَـهُ الكرامَ عليـهِ وعليهم أفضلُ الصَّـلاةِ وأزكى التَّسليمِ قدْ بنَوا المسجدَ النَّبويَّ بنفوسِهِمْ وأيـديهم وأفئدتِهم .. والجميلُ في سعيـدٍ وأمثالـهِ أنَّهم حافظوا على بناء المسجدِ بتعلُّقِهمْ بهِ وحُبِّهم لـهُ ، وعَمَـروهُ بالتَّقـوى والعلم والصَّـلاحِ . وإنَّ تَعلُّقَ سعيدٍ لَيسْمو كالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ أصلُها ثابتٌ وفَـرْعُهـا في السَّماءِ ، ولقـدْ آتى أطيَبَ الأُكُلِ في كلام عـالِمِ المدينةِ وأفعـالِهِ . . فالصَّغيرُ والكبيرُ آنذاكَ لمْ يكنْ يتصوَّرُ مسجدَ النُّبوَّةِ إلا من خلالِ الفقيهِ والمُحدِّثِ الكبيرِ ابنِ المُسَيِّبِ ، ولا يهنأُ لهُ بالٌ ولا ترتـاحُ لهُ نفسٌ إلا إذا رأى وسمِعَ سعيداً يسْألُهُ ويعرفُ عنهُ أجملَ النُّصحِ وأحلى الجوابِ ..

المسجِدُ دارُ الحَياةِ

.. ولـو جلسْنا في المكـانِ الـذي كانَ سعيـدٌ يُفتي فيـهِ بـالعلمِ النَّبـويِّ لأَتْحفَنـا ذٰلكَ المكـانُ بنغمةٍ عـذبَةٍ صافيةٍ يتراءى فيهـا طيفُ الحقيقةِ ، يتحرَّكُ ويقولُ : كـانَ سعيدٌ رَحِمَهُ اللهُ تعالى يحمِلُ أمـانةَ الحُبِّ والتَّعلُّقِ بـالمسـاجِدِ على أتمِّ وجـهٍ ، فهـوَ يرى في المسجـدِ بيتـاً يُـذكَرُ فيـهِ اسمُ اللهِ ، ويُـؤتى بينَ جُـدرانِـهِ وتحتَ سقفِـهِ بأنـواعِ الخيرِ العامـرةِ منْ علمٍ وتعلُّمٍ لفنونِ الحيـاةِ والحضارةِ كُلِّهـا ، وإذا مـا ازدحمَ القـادمـونَ تخرَّجتْ منـهُ أعظمُ الـوفـودِ وأغنى المدارِسِ ، يشعُّ منهـا نـورُ الجِهادِ والجِدِّ والاجتهادِ، وإنَّ هٰذهِ الرُّؤْيةَ الصّائبةَ لتَجْعلُ التَّعلُّقَ بـالمسجـدِ تعلُّقـاً بـاللهِ تعـالى دونَ وسيطٍ، ولاعجب.. فالبيتُ كانَ وسيبقىٰ للهِ وحدَهُ.

الحنينُ أعظمُ الحُبِّ

.. ولعمرُ اللهِ .. لمْ يكنْ سَعيدٌ بِـذلك يَخرُجُ عنْ دائرةٍ رسمَها رسولُ اللهِ ﷺ ، وما أرْوعَهُ مِنْ ظِلٍّ نبويٍّ ينقلُ مَنِ اسْتَظلَّ بهِ إلىٰ ظِلٍّ آخرَ يومَ الحِسابِ ، يجْتَمِعُ فيهِ مَنْ بشَّرَنا بهِ ومَنْ سَعىٰ إليهِ، ولَوْ سَألْتُموني عن نتائجِ هذا التعلُّقِ الخالدِ بالمسجدِ لكانَ أولَها وأبقاها الحنينُ إلى بيوتِ اللهِ، فإذا دخلَها المُحِبُّ اطمأنَّ نَفْساً وروحاً، ورتعَ في رياضِ الجنَّةِ ، وإذا ما خرجَ منها تركَ فيها قلبَهُ وحُبَّهُ، فهو لا يوَفِّرُ جُهْداً في الإسراعِ بالعودةِ إليها، وإنَّها لَخيرُ عادةٍ ، أنْ لا ترى النّورَ ولا تحسَّ بالأمانِ إلا في أرفعِ البيوتِ منزلةً عندَ اللهِ تعالىٰ .

الصَّعْبُ سَهْلٌ أمامَنا

.. وإنَّ أحلى صـورِ هٰـذا الحنينِ التي تجلَّتْ في شخصيّةِ عـالِمِنا سعيدٍ أنَّـهُ لا يَسْعَدُ إلا بِسماعِ الأذانِ ، والتَّحرُّكِ الفوريِّ لأخذِ المكـانِ والمكانةِ في الصَّفِّ الأَوَّلِ، وأَجملُ مِنْ ذٰلِكَ انتظارُ الصَّلاةِ إلى الصَّـلاةِ ، وبقـاؤُهُ في المسْجـدِ بعـدَ صلاةِ الفـريضةِ إلى أنْ تُقـامَ الفريضـةُ التّـاليةُ .. وهكـذا حُبٌّ متواصلٌ ، وتعلُّقٌ دائمٌ ، ودأبٌ متتابعٌ .

وما أَسْعـدَ المرءَ عندمـا يحذو حذوَ سعيـدٍ ، وإنْ وجدَ أنَّ ثمنَ السَّعادةِ صعبٌ وكبيرٌ في حبِّ المساجدِ أربعينَ عـامـاً ، فالتَّـدرُّبُ على ذٰلِكَ ليسَ صعْبـاً . ولْنُحاوِلْ يا أحبَّتي أنْ نبدأَ مِنْ أربعينَ صلاةً خلفَ الإمـامِ دونَ تهاوُنٍ ولا تأخُّـرٍ ، ثُمَّ نجعلَهـا أربعين يومـاً ، ثُمَّ أربعينَ أُسبوعاً فتأتيكَ الأخيرةُ طائعةً .

طوبىٰ لَكَ ولأمثالِكَ

. . . وَلَوْ حاولَ كُلٌّ منّا أنْ يبدأَ هٰذا المشروعَ ، لَوجدَ في نفسِهِ شَوْقـاً أكبرَ للاسْتِزادةِ منهُ والدّوامِ عليهِ ، ولأحسَّ بأنَّ قدْراً كبيراً مِنَ المعونةِ الربّانيّةِ تَتَنزَّلُ عليهِ برْداً وسلاماً . .

وسنقـولُ في آخـرِ المَطـافِ بعـدَ عمـرٍ مليءٍ بالحُبِّ لبيوتِ اللهِ تعالى :

طـوبى لَكَ يابـنَ المُسَيّبِ ، أيُّها العالمُ الـذي شعَّ مِنْ حُبِّكَ أربعـونَ نوراً في كلِّ لحظـةِ زمنٍ . . وجعلْتَنا نملكُ صدوراً تَتّسـعُ لكلِّ النّورِ في هٰذا الكونِ ، نُخاطبُ اللهَ في كلِّ أعمالِنـا وكأنّنا حوّلنا الأرضَ والعـالَمَ مسجداً واحـداً مِنْ حَولِنـا ينطقُ بالعبـوديّةِ الخالصةِ للهِ وحدهُ . فـلا ربَّ سواه ، ولا بيتَ يَضُمُّنا إلا بيتُهُ .

المُرْسَلُ إليهِ في المَسْجِدِ

. . ما رأْيُكُمُ الآنَ أَنْ نرهفَ السَّمعَ إلى هَمَساتٍ باقيةٍ مِنْ كلامٍ سعيدٍ بِشَأْنٍ عظيمٍ؟ أراكُمْ توافقونَ.. وكلامُ سعيدٍ كلُّهُ خيرٌ .. ها هو ذا يردُّ على أسئلةِ طُلابِهِ قبلَ أنْ يُنهيَ جلستَهُ مَعَهُمْ ، وإذا بِوالي المدينةِ يدْخلُ ومعَهُ رسالةٌ ورسولٌ . .

الرَّسولُ من خليفةِ المسلمينَ عبدِ المَلِكِ بنِ مروانَ ، والرّسالةُ فيها طلبٌ مِنَ الخليفةِ إلى سعيدٍ يَخْطبُ ابنتَهُ إلى وليِّ العهدِ في الخلافةِ الوليدِ بن عبدِ المَلِكِ . .

وقدْ يقولُ مَنْ يَسْمعُ الكتابَ : لقدْ فازَتِ ابنةُ سعيدٍ بالخليفةِ المُنْتَظَرِ زوجاً .. وإنَّهُ لَزفافٌ تُحْسَدُ عليهِ ولا ريْبَ . .

جَوابُهُ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ

. . لكنَّ جوابَ العالِمِ الذي تربَّى في المسجدِ وربَّى الآخرينَ فيهِ . . كانَ جواباً ربّانيّاً جليّاً ومِنَ المسجدِ : إليكُمْ جوابي تَحْمِلُونَهُ إلى الخليفةِ السّاعةَ دونَ أَنْ أحتاجَ إلى تريُّثٍ وتفكيرٍ طويلٍ . .

إنْ كانَ الخليفةُ يرغبُ في ابْنَتي زوجةً لابنِهِ فإنَّ ابنَ المُسَيّبِ لا يَطْمَعُ في مثلِ هٰذا الشَّابِ زوجاً لابنتِهِ، وإنْ كانَ ابنُ الخليفةِ يرى في ابنتي عروساً تُناسِبُهُ وتَلِيقُ بِمَقامِهِ ، فإنَّ ابنةَ سعيدٍ لا تَجِدُ في ابنِ الخليفةِ وأبناءِ المُلُوكِ مَنْ هُوَ جديرٌ بالزَّواجِ مِنْها .

ولا تسألوا يا أيُّها الأحبَّةُ عنْ نتيجةِ هٰذا الرَّدِّ ، وعنْ غضبِ الخليفةِ أوْ رِضاهُ ، فالأمرُ لا يُنظرُ إليهِ عَبَثاً .

لِلّمَسْجِدِ تَربِيَتُهُ السّامِيَةُ

أُحِبُّ مِنْكُمْ كما يُحِبُّ سعيـدٌ أَنْ تنظروا في الـرّوحِ التي تستطيعُ أنْ تُجيبَ مثلَ هٰـذا الجوابِ في مِثلِ هذهِ المُناسبَـةِ ، ولولا ارتبـاطُ سعيدٍ بـاللهِ لَما استمدَّ هــذهِ الجُرأَةَ . وأَعْظِمْ بكـلِّ ارتبـــاطٍ ينبتُ في بيـتِ ربِّ العالمينَ . .

وَلعَلَّكُمْ تَسْأَلونَ عَمَّنْ ربّاها سعيدٌ في بيتِهِ، سؤالاً أراهُ في مُحيّاكُمْ ، وجوابي هوَ :

لقدْ زوَّجَها أبوها مِنْ طالبٍ لهُ - اسمُهُ - عبدُاللهِ ابنُ أبي وَداعـةَ وعلىٰ مَهْـرٍ مقْـدارُهُ دِرْهَمانِ لا أكثـرَ ، وفضَّلَهُ على ابنِ الخليفةِ وقصورِ دِمشقَ وكُنوزِ الذَّهبِ والفِضَّـةِ ، والزَّوجُ مِنْ خيرَةِ المُتَعلِّقينَ بـالمسجدِ حُبّـاً وعلْماً ، فرزقَهُ اللهُ بأَحفظِ بناتِ عصرِها للقرآنِ الكريمِ والحديثِ النبوّيِّ الشَّريفِ .

ولِلوداعِ تحيَّةٌ

وقبلَ أنْ أُوَدِّعَكُمْ في نِهايةِ هذهِ الحلقةِ ، أرى مِنَ الواجبِ عليَّ سماعُ عهدِكُمُ الجديدِ للهِ ربِّ المَساجِدِ كُلِّها ، وما أَحْلاهُ مِنْ عَهْدٍ سَما بكمْ إلى ظلِّ العرشِ من ساعةِ الدُّعاءِ :

اللهمَّ اجعلْ كلاً منّا حمامةً في بيوتِكَ ، تَرْتَعُ بينَ حَلَقاتِ العِلْمِ والذِّكْرِ ، وتَحْمدُ خالِقَها في رَكَعاتٍ تتقرَّبُ بها ، واجعلْ حُبَّنا خالِصاً لِوجهِكَ الكريمِ ، ولا تُحبِّبْ لحمامِ بيتِكَ بَيْتاً آخرَ ، فَبُيُوتُكَ هي الروضُ لنا، نخرجُ منها لِنَشْرِ النّورِ وإطعامِ الثَّمرِ للآخرينَ، ثُمَّ نعودُ سِراعاً لِنَحملَ الزّادَ مِنْ جديدٍ بِهمَّةٍ أكبرَ وعزيمةٍ أشدَّ رسوخاً وروحٍ أغزرَ عطاءً ، وفؤادٍ أكثرَ حُبّاً .

اللهُمَّ لَكَ الحمْدُ على ما أَنْعمْتَ عَلَيْنا ، وَلَكَ الحُبُّ حتّىٰ تَرْضىٰ .

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَى لِلنّشر وَالتّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

ثلاثيات تاريخية



سبعة يظلهم الله

٤

ورجلان تحابا في الله

اجتمعا عليه وتفرقا عليه

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع



لاَ شريكَ لكَ لبَّيْكَ

.. في الطـريقِ إلىٰ عـرفـاتٍ كـانتْ نـداءاتُ التلبيةِ تسدُّ أرجاءَ الكـونِ ، ثُمَّ تَعودُ معَ الصَّدى حلوةً نديَّةً ليُردِّدَهـا الصَّغيرُ مِنْ جَديدٍ مُنْبَعِثَةً من القلـوبِ الشّاكـرةِ والعيـونِ المغْـرورقةِ بـدمـوعِ الفرحِ والتوبةِ معاً ، ومِنْ طريفِ الصُّورِ العامرةِ بـالإيمانِ أنْ تـرىٰ المُسرعَ في السَّيْرِ يَحُثُّ الخُطَـا ويجعلُكَ تشتَهِي تَرْكَ الرَّاحِلَةِ أو القافلةِ لتَكْسِبَ النَّشاطَ والقوَّةَ والأَجْرَ ، وآخرُ قدْ علاَ كَتِفَ والِدِهِ يَنْظُـرُ بِعَيْنيْـهِ الصَّغِيرَتَيْنِ إلَى جُموعِ الحَجِيجِ التِي تَشُـدُّ العَزْمَ نَحْـوَ جَبَلِ الـرَّحْمَةِ ، فتقـرَأُ فِي نَظَرَاتِـهِ تَلَهُّفاً واضِحاً يقولُ :

يـــا رَبُّ ، متَىٰ سأصبـحُ كبيراً وأسيرُ إليكَ وَحْدِي ؟

لِكُلٍّ سِباقٍ قِبلَة

. . وَوَسَطَ هـذا الحشـدِ الكبيرِ المؤمنِ ، كـانتْ قافلةُ الـرحمنِ تشقُّ طريقَها بصعوبةٍ بـالغةٍ ، بعدَ أنْ بَدا لهَا سفحُ عـرفاتٍ مِنْ بَعيدٍ ، يُزيِّنُـهُ مسجدُ نَمِرَةَ قبلـةُ تَسـابُقِ الحَجيجِ الأولى فِي يَـومِ الحجِّ الأكبرِ ، ومَنْ يَفُـزْ بِمَكانٍ فِي المسجدِ أوْ في السَّفْحِ القَـريبِ المجاورِ فقَدْ حازَ علَى مكانَةٍ مرموقَةٍ بين النُّفُوسِ . .

واستطاعَتْ أسرةُ أَبِي عـاصِمٍ أنْ تَجِدَ لها سَعةً مِنَ الأَرْضِ قُرْبَ الجِدارِ الشَّرقِيِّ لِلمسجِدِ ، وَقَدْ يصعُبُ تحمُّلُ الزِّحامِ إلا فِي مناسِكِ الحجِّ ، وعَلى عَرفَةَ خاصةً ، ومِمَّـا يُخَفِّفُ الصعوبَةَ أكثرَ أنَّكَ لاَ ترىٰ ولاَ تسمعُ إلا لِسـاناً يلهجُ بذكـرِ اللهِ تعالىٰ ، وَيـرسمُ دوائرَ مغنـاطيسيَّـةً مِنَ الحُبِّ تجذِبُكَ فِي جميعِ الاتجاهاتِ . .

وفي الأرضِ رِياضُها

. . وراحَ أَبُو عـاصِمٍ معَ زَوْجَتِـهِ وابنتِهِ عصْماءَ وابنِـهِ عـاصمٍ فِي انتظـارِ الخُطبـةِ الجامعـةِ يلقِيهـا خطيبُ هــذَا اليوم المشهودِ ، وإنَّ الانتظارَ في مثلِ هذا المكـانِ ليملأُ النَّفْسَ بَهْجةً ويبعـدُ عنها السأمَ والملَلَ، وأيُّ رَوْضٍ أحبُّ إلى الحَجِيجِ مِنْ بيوتِ اللهِ ؟

ومِمَّا زادَ هذَا الـروضَ بهاءً وشرفاً أنَّكَ تنظرُ في الوجوهِ المحيطةِ بكَ فلا تشبعُ ، وتسرحُ النظرَ في الصفوفِ الممتـدةِ أمامَكَ فـلا ترتَـوي عيناكَ . . وتُصيبُكَ الحيرةُ وتزدحِمُ في صدرِكَ ، إلى أَيِّ وجهٍ تنظرُ أكثرَ ، وإلى أيِّ حـديـثٍ تُـرهِفُ السمعَ وتُصْغِي ، فَالْأَلْسِنَةُ تنطِقُ بالدُّرِّ ، والوجوهُ تطفحُ بـالبشرِ وتفـوحُ بـالعِطْـرِ ، والأنـوفُ لا تشمُّ إلا المسكَ الخالِصَ .

. . لِتَعارَفُوا . .

. . لا عليكَ يـا أبا عاصم . . فَـإِلىٰ جـانبِكَ مسلمٌ سارَ طويلاً وهُـوَ يقطَعُ المسافاتِ البعيدةَ مِنْ بلـدِهِ ، وهُوَ بحـاجـةٍ إلى مَنْ يأخذُ بأطـرافِ الحديثِ ذي الشجـونِ مَعَـهُ ، أراكَ متردِّداً لأمـرٍ أثارَ انتباهَكَ . . . أليسَ كَذٰلِكَ ؟

بيَـدِكَ حلُّ هـذهِ المُعْضِلَـةِ يـا عمَّاهُ ، فـابنُكَ عاصمٌ يستطيعُ أنْ يُذلِّلَ لكَ أسلوبَ التفاهمِ معَ مَنْ لا تُجيدُ لغتَـهُ ولا يُجيدُ لغتَكَ ، وابْنَتُكَ عَصْماءُ تستطيعُ أن تسـدِيَ إلى والـدتِها معـروفـاً بنقلِ الحديثِ إلى الجارةِ المسلمـةِ . . وتبقى مشكلـةُ التعارفِ والكلامِ بينَ الأبناءِ والبناتِ أقلَّ صعوبةً . . هيَّا يَـا أيُّها الحاجُّ الكريمُ ، لقـدْ جَمَعَكُمُ الإيمانُ ، فَلْيَجمعْكُمُ الحُبُّ فِي اللهِ الذي آمنتُمْ بِهِ .

« .. أَفْشُوا السَّلامَ بينكُم »

.. رنَّ هٰذا الهاتفُ الربّانيُّ في أُذُنَيْ أَبي عاصمٍ، فأشرقتْ أساريرُ وجهِهِ، وبدا البشْرُ طافِحاً علىٰ مُحيَّاهُ، ونظرَ في عَيْنَيْ صاحِبِهِ المجاورِ، واقتربَ منهُ بِلُطْفٍ، تسبقُهُ ابتسامةٌ حلوةٌ عَلى ثغرِهِ .. ومدَّ يدَهُ محيِّياً بتحيَّةِ الإسلامِ. وجميلٌ أنْ يكونَ لسانُ هذا الأعجمِيِّ قادراً على ردِّ التحيَّةِ بأحلىٰ منها فهذا مفتاحٌ للقلوبِ والنفوسِ معاً.

وتذكَّرَ أَبُو عاصمٍ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ الذي يَحُثُّنا فيهِ أنْ نسألَ مَنْ أحببناهُ عَنِ اسمِهِ وبلدِهِ، ونُشْعِرَهُ بأُسلوبٍ لطيفٍ أنَّنا قَدْ أحببناهُ أخاً مسلماً ومؤمناً كريماً.

﴿ إِنَّمَا المؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

. . ونِعْمَ الاجتماعُ للمحبِّينَ فِي عـرفاتٍ ، إنّها فرصةٌ لا تُقَدَّرُ بثمنٍ ، ودقائقُ لا تُعَوَّضُ فِي العمرِ كلِّهِ ، وقدْ تكونُ وحيـدةً فِي حياةِ الإنسانِ أَنْ يرىٰ أخاً لهُ يحملُ الحبَّ والإشراقةَ والإيمانَ ، وكلُّ هٰذهِ العناصرِ تزرعُ الأخوَّةَ الحقيقيَّةَ ولا أُخوَّةَ غيرُهَا . .

ولا غرابةَ أنْ يَحرِصَ المسلمُ عَلى هذهِ الرّابِطَةِ دونَ غيرِهـا لأنَّ جنسيّـةَ المسلمِ وقـرابتَـهُ لأخيـهِ المسلمِ تبقَى محصـورةً فِي العقيـدةِ وحـدَهَـا . . وأَكـرِمْ بهٰذهِ العقيـدةِ التي أحبَّهـا أَبُـو عـاصمٍ ، وبكلِّ منْ أحبَّ عقيدتَهُ . .

اللَّهُمَّ اعصِمْ محبَّتَنـا مِنَ الـزَّلَـلِ ، واجعلْهـا خالصةً لوجهِكَ الكريمِ .

.. وزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنا ..

.. وتهلَّلَ وجهُ أمِّ عاصمٍ وهيَ تحذُو حذْوَ زوجِهَا ، وراحَ عاصِمٌ وعصماءُ يغذِّيانِ هذهِ الروحَ المتآخيةَ بفيضٍ منَ البيانِ والوضوحِ ، وما أحلاَها مِنْ روحٍ تجمعُ بينَ أخٍ من الهندِ ، وآخرَ مِنْ دمشقَ! وما أسماها مِنْ رابطةٍ تربِطُ أهلَ الأرضِ بعضَهمْ ببعضٍ، ثُمَّ تَصِلُهُمْ بربِّ السماءِ، وأهلِ الآفاقِ الكونيّةِ ! . .

إنَّ أسرتَنا قَدْ أحبَّتْكُمْ إخوةً لَهَا ، وتريدُ أنْ تتوطَّدَ أواصرُ الأخوَّةِ بإِعْلانِها لكُمْ عَنْ حبِّها ، وإنَّ هَذهِ البُقعةَ المباركةَ لا تتَّسِعُ إلا للحبِّ ينبعثُ مِنَ الْفؤادِ إلىٰ كلِّ مَنْ جاءَ ملبِّياً وعابداً .

﴿ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ رَبِّي .. ﴾

.. كَلِماتٌ صاغَها القلبُ العامرُ ، فانسابَتْ تجرِي فِي الدَّمِ والعروقِ ، وكأنَّ الأسرةَ الأُخْرى كانتْ تَوَدُّ صُنعَ المودَّةِ نفسِها ، فأوقفَتْها أعجميَّةُ اللسانِ عَنِ الإسراعِ في ذٰلكَ ، ولذٰلكَ جاءَتْ بادرةُ أَبي عاصمٍ نديَّةً ومواتيةً ، ودلَّتْ علَى صدقِ النُّفوسِ دموعُ الفرحةِ تتدفَّقُ غزيرةً ، وتُزهِرُ معها الحروفُ الصامتةُ الّتي قَدْ تعجَزُ عَنْ إثباتِ وجودِها أحياناً كثيرةً .

ولا تسَلْ عَنِ المدادِ الذي شحنَ الأفئدةَ كلَّهَا ، فأبو عاصمٍ قَدْ تعرَّفَ على أبي إقبال ، وزوجتُهُ رأتْ في جارتِها مرآةً لها ، تحفظُ الفاتحةَ وآياتٍ كثيرةً مِنَ القرآنِ الكريمِ ..

المُحِبُّ أهلٌ لأنْ يُحَبّ

أمَّا لَدىٰ الذُّريةِ الطَّيِّبةِ ، فكانتِ الدّائرةُ أوسعَ وأشدَّ رحابةً وأسرعَ التحاماً ، وغدا أفرادُ الأسرتَينِ كبستانٍ مِنَ الزُّهورِ التي ارتوتْ بعدَ ظمأٍ شديدٍ ، وتفتَّحتْ نحوَ الحياةِ بوجهٍ جديدٍ ومشرقٍ..

وشعرَ الجميعُ أنَّ الملائكةَ قَدْ حفَّتْهُمْ بحُبِّها لَهُمْ ، وأنَّ أرواحَهُمْ قَدْ سمتْ فوقَ سُمُوِّها ، وكأنَّ السماواتِ تُردِّدُ مغرِّدَةً : إنَّ اللهَ قدْ أَحَبَّكُمْ ، ومَنْ أحبَّهُ اللهُ فهُوَ أهلٌ لكلِّ خيرٍ وتكريمٍ . .

وأدركَ أبو إقبالَ أنَّ ما شعَّ فِي هذهِ اللحظاتِ مِنَ النّورِ حرامٌ أنْ يُطفأَ أو تُخْمَدَ جذوتُهُ ، لِذٰلِكَ راحَ يُثبّتُ في سجلِّ مذكّراتِهِ صورةً عمّا دارَ في هٰذا اللقاءِ الأخويِّ . .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِم ﴾

وطُوبَى لَهُ في عملِه الذي كانَ إقبالاً نحوَ صداقةٍ وصحبةٍ دائمةٍ ، وفاتحةَ خيرٍ عميمٍ لا تزولُ حلاوتهُ طيلةَ العمرِ . . ولَعَمْرُاللهِ . . كمْ كانَ يشعرُ بجلالِ صنيعِهِ ، فكلُّ حرفٍ منْ حروفِ أسماءِ العائلةِ المؤمنةِ ، وكلُّ سطرٍ مِنْ سطورِ الحديثِ كانَ يقطرُ غبطةً وسروراً وأُنساً ، ويَشِفُّ عنْ روحٍ لا تجدُها إلا عندَ أولئكَ الصّالحينَ مِنَ السّلفِ الصّالحِ والّذينَ تجلَّتْ فيهِمْ صورةُ الهجرةِ إلى اللهِ والنُّصرةِ في دينِ اللهِ. وما أقربَ اليومَ مِنَ الأمسِ ! وما ألصقَ نفوسَ المهاجرينَ والأنصارِ بنفوسِنا ونحنُ نحاكِي طيفَهُمْ ، ونحاولُ إعادةَ تاريخِهم مِنْ جديدٍ ! .

اللّهُمَّ زِدْنا صِدْقاً في هٰذهِ المحبَّةِ ، ولا تحرِمْنا مِنْ قطفِ ثمارِها دوماً .

« بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة »

. . ومِمَّا جعلَ صحبـةَ الأسرتينِ أقوى في عُـرَاها ، أنَّ الخطيبَ بعـدَ أنْ حَمِدَ اللهَ تَعالى وأثنـى عليهِ نـادى الحجيجَ بنداءِ اللهِ ، ودعاهُمْ إلى بناءِ صرحٍ شامخٍ مِنَ المودَّةِ والحبِّ ، وتلا عليهِمْ آيـةَ التَّآخِي ، وحثَّهُمْ على التَّعارُفِ في اللهِ ، وذكَـرَ لهُمْ أحاديثَ النبوَّةِ الطـاهرةِ التي تنـزعُ الرِّجْـسَ مِنَ القلوبِ ، وتـزرعُهـا صلاحـاً وتقْوى . . وحبَّبَ إلى جميعِ النفوسِ أنْ تَمُدَّ يدَ المبادرةِ والأخـوَّةِ ، فكنْتَ تـرى الوجـوهَ وكأنَّها خُلِقَتْ خلْقـاً جـديـداً ، والعيونَ قـدْ حكتْ مـا لَمْ تحكِـهِ مِنْ قبلُ ، ونطقَتِ القلوبُ بِلُغَةٍ واحدةٍ :

اللَّهُمَّ قَـدْ جِئْنـا إِليكَ متحـابِّينَ، واجْتَمَعْنـا على محبَّتِكَ، فلا تردَّنا يا ربُّ إلا ونحنُ على دينِكَ وحُبِّك .

وَلِلرَّحْمَةِ بابٌ واحِدٌ

وبعدَ صلاةِ الفريضتَيْنِ خلفَ الإمامِ ، انطلقَتِ الجحافلُ عرائِسَ بالتلبيةِ ، تلهجُ ألسنتُهَا بذكرِ اللهِ ، ورَفَعتْ أشرعةَ حبِّها عالياً وسارتْ نحوَ جبلِ الرّحْمَةِ ، وحَمَلَتْهُمْ علىٰ أجنحَتِها إلىٰ صخراتٍ وقفَ عندَهُنَّ أكرمُ البشرِ ، وتجلَّتْ سحابةُ الرحمنِ فوقَ الرؤوسِ ، لا ترى فيها إلا الغيثَ وأيُّ غيثٍ، ولا تسمعُ فِي قطراتِها إلا صدىٰ العرسِ الملائِكيِّ :

اللَّهُمَّ هَؤلاءِ عبيدُكَ ، جاؤُوا مُقْبِلينَ نحوكَ ، طالبينَ أن تَعصِمَهُمْ مِنْ غضبِكَ ، فلا تردَّهُمْ يا ربُّ خائبينَ ، ولا تخيِّبْ رجاءَهُمْ يا ربَّ الدعاءِ والداعينَ ، اللَّهُمَّ آمين .

« .. كَيَوْمِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ »

.. وحاشا للهِ أنْ تَبْعُدَ عنهُ الرَّحمةُ وهُوَ الرحْمٰنُ الرحيمُ ..

أهلُ المغفرةِ والبرِّ والتوبةِ ..

وما هِيَ إلا ساعةٌ حتّى عمَّ الكونَ كلَّهُ نداءُ الشهادةِ مِنَ اللهِ مالكِ الرحمةِ وحدَهُ :

اِشهدُوا أنِّي قَدْ غفَرْتُ لهُمْ ..

وما أصعبَ الفرحةَ عندما لا تَتَّسِعُ لها الصدورُ والشِّفاهُ والعيونُ ! ! لقدْ غَمَرَتْهْا وفاضَتْ بها ، ثُمَّ فتحتْ للعائدينَ طريقاً لا يُعادِلُهُ طريقٌ .. وبدا أَبُو عاصمٍ وأبو إقبال وأسرتاهُما بينَ الجموعِ كَزَهرتينِ فِي غصنٍ واحدٍ ، تُسقَيانِ بماءٍ واحدٍ: **«اجتمعَا عليهِ، وتفرّقا عليهِ»**.

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَى لِلنّشرِ وَالتّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

النُّورُ نَاطِقَةٌ



سبعة يظلهم الله

٥

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال

فقال: إني أخاف الله

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع



.. لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظيمٍ

.. تَوقُّعاتُ الجميعِ كانتْ صادقةً ، فها هِيَ ذي النتائِجُ قَدْ أطلَّتْ بِرأسِها ، لِيَقرأَ كلُّ ذِي عَيْنٍ الحقيقةَ التِي ليسَ فِيها خِلافٌ ، وإنَّها لَنِعمَتِ النَّتيجةُ والحقيقةُ :

عبيدةُ هوَ الطّالبُ الأوَّلُ بينَ طُلابِ كُلِّيةِ الطِّبِّ ، ولا نقولُ إلا الصَّوابَ عندما نقولُ : إنَّ عبيدةَ أهلٌ للدَّرجةِ الأُولى دوماً ، ليسَ فِي اجتهادِهِ فحَسْبُ، وإنَّما في سلوكِهِ القويمِ وخُلُقِهِ العظيمِ .

وَ هٰذا كُلُّهُ مَدْعاةٌ لأَنْ يكونَ محطَّ احترامٍ مِنْ هيئةِ التدريسِ ، وكافَّةِ الرفقاءِ وكُلِّ مَنْ يسمعُ بِهِ فِي ظهرِ الغيبِ ، ولا تسألُوا عَنْ تهنئةِ النّفوسِ والقلوبِ والألسنةِ والنَّظراتِ معاً لعُبيدةَ ، فالكونُ كُلُّهُ ينطِقُ : باركَ اللهُ بكَ وبثمرةِ عملِكَ .

بابٌ يصعبُ إغلاقُهُ

.. وعلى الـرُّغمِ منَ النتيجــةِ المشرِّفَـةِ ووابلِ التَّهـانِي التِي انهالَتْ مِنْ كُلِّ حـدبٍ وصـوبٍ ، كانتْ أساريرُ وجهِ صاحِبِنَا تَنِمُّ عن حَيرةٍ دفينةٍ ، وقلقٍ بالغٍ .. ما الّـذِي حدثَ يا بطلَ النَّجاحِ ؟ وما الّـذِي يشغلُ تفكيرَكَ ؟ وهَلْ بعدَ مـا حقَّقْتَهُ يكونُ لكَ عذرٌ في ذهابِ ابتسامةِ ثغرِكَ المعهودةِ؟

خَفِّـفْ عَـنْ نفسِـكَ حِمْلَ الحيرةِ والقلـقِ ، وتحدَّثْ عمّـا يشغلُكَ فكُلُّ آذانِنـا صاغيةٌ ، وكُلُّ قلـوبِنا طـوعُ محبَّتِكَ حتّى تعـودَ لكَ بسمتُكَ ونظراتُكَ المتَّزِنَةُ .. وإنْ وجدْتَ أنَّ الأمرَ صعبٌ، فـاخترْ أُذُنـاً واحـدةً لتُسِرَّ إليهـا بما يَجِيشُ في صدرِكَ ، وما يعترِي نفسَكَ مِنْ همٍّ يَثْقُلُ حَمْلُهُ.

أنيابُ الفقرِ حادَّةٌ

.. ويقتربُ عُبيدةُ بخطواتِهِ على استحياءٍ ، ليزرَعَ فِي أُذُنَيْ أحدِ أساتِذَتِهِ كلماتٍ هِيَ إلى الهمسِ أقربُ :

وكيفَ لا يأسِرُنِي الهَمُّ ، وتَعضُّني الحيرةُ ، وقدْ أسرَني وعضَّني الفقرُ مِنْ نُعومةِ أظفاري ، ولَمْ أتابعْ تَعلُّمي إلا بشقِّ الأنفسِ ، وكثيراً ما كنتُ ألومُ نفسي لدخولي هذهِ الكُلِّيَةَ ، حيثُ لَمْ يُفارِقْنِي التفكيرُ منذُ دخلتُهَا وأنا أَحمِلُ الغمَّ على رَأْسي وظهري ، فَمِنْ أَيْنَ سَتَأْتيني الظروفُ المواتيةُ لفتح عيادةٍ طبيّةٍ أعملُ بِها ؟ ومَنْ يصدِّقُني أَنَّني الأوَّلُ بينَ رُفَقائي ولا أملِكُ مالاً أُؤَسِّسُ بِهِ ما يُؤَمِّنُ مستقبلي وعملي، ويكفَلُ لي النجاحَ بَعْدَ تخرُّجي ؟!

﴿مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ﴾

لعلَّ الصورةَ الخافيةَ قَدْ أتى عليها الوضوحُ الآنَ . وما أَقْسى الحياةَ عندما تظهرُ بوجهِها المُرِّ عندَ الحاجةِ إلىٰ حلاوةِ الوجهِ الآخرِ !! ولَعَمْرُ اللهِ .. إنَّ الصَّبرَ عَلى الابتلاءِ يحتاجُ إلى تخصُّصٍ مِنْ نوعٍ سامٍ ورفيعٍ . .

وألفُ شكرٍ للأستاذِ الكبيرِ صاحبِ القلبِ الكبيرِ ، إذْ سمعَ فكتمَ ووعى ، وربَّ همسةٍ واحدةٍ يا عبيدةُ قدْ فتحَتْ لكَ أبوابَ السَّماءِ ، وإنَّ اللهَ الذي رعاكَ وأتَمَّ عليكَ نعمةَ التعلُّمِ ، لَنْ يبخَلَ عليكَ في إسباغ نعْمةِ العطاءِ والعملِ . . وإنَّكَ لتستحقُّ كلَّ ما يُدخِلُ السرورَ إلى قلبِكَ ونفسِكَ وجيبِكَ . .

وإنَّ منْ دفعَهُ الأملُ والعملُ لكَيْ يتعلَّمَ ، جديرٌ بأنْ تَفتحَ لَهُ الحياةُ بابَ السعادةِ على مصراعَيْهِ . .

.. خَلَقْناهُ بِقَدَر

وفِي حَيٍّ متواضِعٍ مِنْ أحياءِ المدينةِ ، استطاعَ المدرِّسُ الكريمُ أنْ يجدَ لعبيدةَ داراً صغيرةً من غرفتينِ ، يمكنُها أن تكونَ المحطَّةَ الأولى لِحضانةِ الطَّبيبِ الصَّغيرِ ، وفاتحةَ خيرٍ عميمٍ ينطلقُ منها إلىٰ أخرىٰ أوسعَ و أَكْثَرَ رحابةً . . وإنَّ بشائرَ الخيرِ لَوْ أَتَتْ دفعةً واحدةً لكانتْ عبئاً ثقيلاً على مَنْ تنهالُ عليهِ . وعبيدةُ أدرى النَّاسِ بالقانُونِ الذِي يقولُ : لَوْ تناولَ الإنسانُ الدواءَ المفيدَ جرعةً واحدةً وبكميةٍ كبيرةٍ تزيدُ عَنْ حاجةِ جسمِهِ لَفَقَدَ الحياةَ دفعةً واحدةً أيضاً .

وأَنْعِمْ بالقناعةِ رائداً ! ولاَ تسأَلْ عَنْ فرحةِ الطَّبيبِ عبيدةَ بالغرفتينِ ، فالسرورُ كانَ عظيماً .

اللَّيالي تَبْكي أيْضاً

. . وسُرْعَانَ ما استفادَ مِنْ إمكاناتِهِ الصغيرةِ في ترتيبِ الدارِ وتحويلِها إلى عيادةٍ مِنَ الطِّرازِ الجَميلِ ، وأَكْرَمَهُ اللهُ بشهرةٍ يُحْسَدُ عَلَيْها بينَ أقرانِهِ ، وأخذَتِ العيادةُ تدرُّ عليهِ الخبرةَ والرِّبحَ ، فزادَتْ ثروتُهُ العِلميَّةُ ، وسدَّدَ الكثيرَ مِنَ المبالِغِ التي استدانَها قُبَيْلَ الافتتاحِ ، وزادهُ اللهُ بسطةً في حُبِّ الخَيْرِ والسَّعْيِ إلَيْهِ . .

وتبقَى الحياةُ دارَ ابتلاءٍ كما هِيَ دارُ ربحٍ وعطاءٍ ، وكلُّ شيءٍ قدْ حَسَبَ لهُ طبيبُنا حساباً إلا حِسابَ تلكَ اللّيلةِ الشّاتيةِ والباكيةِ . . وليتها لَمْ تكُنْ بينَ اللّيالي . .

سأتركُ لكُمُ العيادةَ تتحدثُ عنْ نفسِها لتعرِفوا ما الخبرُ ؟

وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِه ؟

فَتَحَ عبيدةُ بابَيْ عيادتِهِ على عادَتِهِ كلَّ يومٍ في الساعةِ الرابعةِ بعدَ صلاةِ العصرِ ، ودعا اللهَ كما كانَ يفعلُ كلَّ افتتاحٍ أنْ يجعلَ لقمتَهُ حلالاً ، ولا يخيِّبَهُ في مَدِّ يدِ العونِ لمرضَاهُ حتّى يَتِمَّ لهُمُ الشِّفاءُ بإذنِهِ تعالى .

وكانَ ذَلكَ اليومُ شتويّاً حقّاً ، فالمطرُ الغزيرُ والريحُ العاصفةُ والبردُ القارسُ ، أمورٌ ثلاثةٌ قاسيةٌ تجعلُ العيادةَ فقيرةً مِنَ الزَّبائِنِ ، فلا يصلُ إليها إلا مَنْ وصلَ مرضُهُ إلى درجةٍ لا يحتَمِلُها الجسمُ ، ولا تَصبرُ عَلَيْها الروحُ . .

والتفتَ عبيدةُ إلىٰ كتابٍ يقرأُ في صفحاتِهِ آخرَ أنباءِ العلومِ علىٰ اختلافِ أنواعِهَا ، وكثيراً ما كانَ يقطعُ القراءةَ للرَّدِّ علىٰ الهاتفِ أو إحكامِ إغلاقِ النافذةِ ، أو أخذِ قسطٍ مِنْ حرارةِ المدفأةِ . .

عِندَما يُطْبِقُ الصَّمْتُ

وأصابَ العِيادةَ صمتٌ مطبقٌ بعدَ ساعتينِ تماماً ، فالتيارُ الكهربائيُّ قدِ انقطعَ ، والبقاءُ علَى ضوءِ الشمعاتِ الثلاثِ كان موحشاً لا محالةَ ، وعملُ الطبيبِ قَدْ يحتاجُ أكثرَ مِنْ غيرهِ للضَّوْءِ المريحِ والمناسبِ فِي المَمَرِّ وغرفةِ الانتظارِ ومكانِ العلاجِ . ولعلَّ الفقرَ فِي الزبائنِ جعلَ الحاجةَ إلى الضَّوءِ أقلَّ مِنْ ذي قَبْلُ . .

وكُلُّ هٰذا محتمَلٌ : البردُ والريحُ والمطرُ وصفيرُ المكانِ والظلامُ ، أمّا أن تفقِدَ المدفأةُ قدرتَها على التوازُنِ ، فهٰذا ما يزيدُ الأمرَ سوءاً ، وأنّى للطبيبِ بالذهابِ إلى البيتِ وما زالتْ غزارةُ الأمطارِ تشجِّعُهُ على البقاءِ اتقاءً من أثرِها . .وفوقَ هٰذا راحتِ الشمعاتُ الثلاثُ تترنَّحُ مُتوعدةً ومنذرةً . .

وَلِلطّامَّةِ مِفْتاحُ

. . وراحَ عبيدةُ يؤنسُ وحشةَ نَفسِهِ بما يحفظُهُ مِنْ آياتٍ تبعثُ فيهِ الـدِّفْءَ ، وتذكِّرُهُ بما لا يجبُ أنْ ينساهُ . . وقبلَ أنْ يأتِيَ موعِدُ الإغلاقِ بـرُبعِ ساعةٍ ، حدثتِ الطّامَّةُ وأَيَّةُ طامَّةٍ . . ! ! ؟

دخلَتْ مِنْ بـابِ العِيادَةِ فتـاةٌ في رَيْعَانِ شبابِها، تَنْبَعِثُ منهـا روائحُ العطـورِ مجتمعَـةً ، وتحملُ بيـدِها مِحفَظةً أنيقـةً تلوحُ مـعَ مِشْيتِها . . ودخلَتْ إلى غرفَةِ الطبيبِ بعـدَ أنْ أطفأَتْ بيدِها شمعةَ الممرِّ وشمعةَ الانتظارِ ، وهَبَّ عبيدةُ واقفاً مرحِّبـاً لا يدري مَنِ القـادِمُ ، فالشمعةُ البـاقيةُ لَمْ تكُنْ كـافيةً لـرؤيَتِهـا ، وأصـواتُ أقدامِ الفتـاةِ لَمْ تكُنْ مسموعةً أو واضِحةً . .

.. زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ..

.. وقـالَ الطبيـبُ عبارتَـهُ المعهــودةَ : أهـلاً وسهـلاً، خيراً إنْ شـاءَ اللهُ ! وظنَّ أنَّها تـريـدُ اتِّقـاءَ المطرِ والبردِ وهِيَ فِي طريقِها إلى البيتِ ، فالمرضُ لَمْ يَكُنْ ظاهِـراً فِي مِشْيتِها ، ولكنَّها سرعـانَ ما اقتربتْ منهُ وهِيَ تسمعُ سؤالَـهُ : هَلْ مِنْ خدمةٍ أُؤَدّيها لكِ يا أختاهُ ؟ وهزَّتْ رأسَها مَعَ ابتسامَةٍ بدتْ واضحةً لمّا اقتربَتْ أكثــرَ مِنْ نُــورِ الشَّمعَــةِ المترنِّحِ ، وقالَتْ: أجَلْ .. كُلُّ الخدمةِ يمكنُك أنْ تُؤَدِّيَها لي يا مَنْ تُعالِجُ المرضَى وتخلِّصُهُمْ مِنْ آلامِهِمِ.

وسُــدَّ أنفُ عبيدةَ بـرائحـةِ العطرِ الكثيفـةِ ، ورأىٰ في ملامحِ وَجْـهِ هذهِ الفتاةِ زينةً لَمْ يَـرَها في مريضـةٍ دخلَتْ عيادتَهُ .. مـا بالُها يا تُـرىٰ ؟ وما الذي جاءَ بها في أَحْلىٰ زينةٍ لَها ؟

تَفْسيرٌ لا يقَبلُ الرَّدَّ

. . وحلَّلَ الطبيبُ موقِفَها مِنْ جميعِ أطرافِهِ ، فما وجدَ تفسيراً يخفِّفُ ما أصابَهُ مِنَ الوجومِ . . ودارتْ بهِ الغرفةُ ، وأحسَّ كأنَّ السماءَ قدْ أطبقَتْ عليهِ ، وأنَّ السقفَ والجدرانَ بَلْ وكلَّ ما في العيادةِ قدْ فَقَدَ توازُنَهُ ورَماهُ بالدُّوارِ والدَّهشةِ ! !

هَلْ يُعْقَلُ أنْ تأتيَ مريضةٌ وحيدةٌ في مثلِ هٰذا الطقسِ وتلكَ الليلةِ الموحشةِ ، وقدْ مضى على انقطاعِ التيارِ أكثرُ مِنْ ساعةٍ ونصفِ الساعةِ؟! وفيمَ هٰذهِ الزينةُ الفاتنةُ على الرُّغْمِ منْ أنَّ اللهَ قدْ أَنْعَمَ عَلَيْها بجمالٍ قلَّ أنْ تجدَهُ بينَ فتياتِ عصرِها ؟ والأدهى من ذٰلكَ طريقةُ كلامِها واقترابِها منَ الشَّمعةِ العجوزِ أكثرَ وأكثرَ قائلةً : لَوْ أحببتَ أنْ أطفِئَ لكَ الثالثةَ لما عصيتُ لكَ أمراً أو رغبةً ، ولو أذنتَ لي بذلكَ لما خسرْتَ .

« وحُفَّتِ النّارُ بالشَّهَواتِ »

صاحَ بها وصرخَ بملءِ فيهِ: ما الذي تريدينَهُ منّي؟

وقطعَتْ عليهِ صراخَهُ وهِيَ تتابعُ إغراءَها وتشجِّعُهُ علَى الاقترابِ مِنْها:

لا علَيكَ، فبابُ العيادةِ قدْ أغلَقْتُهُ لكَ بنَفْسي، وانتظرتُ مثلَ هٰذهِ اللحظاتِ، وأنا أعلَمُ أنَّكَ لا تملِكُ مَنْ يُؤْنِسُ وحشتَكَ فِي ليلَةٍ كهٰذهِ، وسأعوِّضُ لكَ فقرَ الزبائنِ وأسدُّ ديونَكَ، أيكفيكَ حسابٌ جارٍ كيفما تشاءُ؟ خُذْ مِنْ أموالي ما شِئْتَ، ولا تَحرِمْني مِنْ ساعةِ اطمئنانٍ إليك..

ثُمَّ رَمَتْ إليهِ بِمحفَظَتِها، فكادَ قلبُهُ يتفطَّرُ غيظاً، وكتَمَ أنفاسَهُ، وسألَ اللهَ تثبيتاً لإيمانِهِ، ولمّا رأَتْ منهُ تمنُّعاً وحذَراً شديدَيْنِ، بالغَتْ فِي إبرازِ مفاتِنِها حتّى لا تَدَعَ لَهُ سبيلاً فِي رفضِ المهاوِي الشيطانيَّةِ أَوْ إمساكِ مِفتاحِ الرّذائلِ كلِّها.

إنّي أَخافُ اللهَ

.. وأمامَ هذَا الخبثِ العارمِ ، والعبثِ الفاضحِ ، بَلْ وأمامَ المالِ والجمالِ الصّارخِ ، وفِي هٰذا الجَوِّ القاسي والخلوةِ القاهرةِ ، يصعبُ على مَنْ لا يملك إيماناً راسخاً كالجبالِ أنْ تثبتَ قدمُهُ .. وكثيراً ما كانَ الزللُ حليفَ الكثيرينَ مِمَّنْ أَوْقَعَهُمُ الشَّيْطانُ فِي حبائِلِهِ .

وكَمْ كانَتْ مِنْ عبيدَةَ رائعةً تلكَ الجرأةُ المكَلَّلَةُ بالنَّجاحِ حيثُ أمسكَ بِزمامِ نفسِهِ وقالَ لَهَا قولاً لَمْ يَحْتَجْ بعدَهُ إلَى زيادَةٍ :

بُوركَ لَكِ يا أختَاهُ فِي شبابِكِ ومالِكِ وجمالِكِ، وزادَكِ اللهُ مِنْ نِعَمِهِ .. ولَسْتُ أنا مِمَّنْ يَسْهُلُ جَذْبُهُمْ نَحْوَ الفاحِشَةِ .. وبابُ العيادةِ يمكنُ فتحهُ ثانيةً ، ولا أملِكُ بينَ جوانحِي وفِي صَدْرِي إلا قَلْباً واحداً يخافُ اللهَ وحدَهُ .

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشرِ وَالتَّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

حكايات سعد



سبعة يظلهم الله

٦

ورجل تصدّق بصدقة

فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع

by E-Shaykh, pls make du'aa for us



لَا تَنْسَنَا فِيْ الدُّعَاءِ

العيد لِكُلِّ الصّغارِ

سَأَلَ أَيْمَنُ والِدَهُ وَالاسْتِغرابُ يَمْلأُ عَيْنَيْهِ : أَحَقّاً يا أَبَتاهُ أَنَّ العيدَ لَيْسَ مِنْ حَقِّ جَميعِ الأَوْلادِ وَالصِّغارِ ؟ صَمَتَ الأَبُ ، وَهُوَ لا يَدْري فيمَ سؤالُ ابْنِهِ ! لكنَّ الصَّغيرَ اسْتَحَثَّ والِدَهُ كَمَنْ يَسْتَغيثُ وَيَسْتَنْجِدُ . وَأَعادَ السُّؤالَ بِأُسْلوبٍ فيهِ حَيْرَةٌ وَبَعْضُ الأَسى: أَيَجوزُ يا والِدي أَنْ يُحْرَمَ أَوْلادُ جارَتِنا أُمِّ نُعْمانَ مِنَ الْفَرْحَةِ أَيّامَ العيدِ الْقادِمِ ، وَأَنْ يَعيشوا المَرارَةَ وَسَطَ جُدْرانِ غُرْفَتِهِمْ !!؟

وَهُنا فَهِمَ أَبو أَيْمَنَ مَقْصِدَ وَلَدِهِ ، وَانتَبَهَ كَمَنْ لَدَغَتْهُ أَفْعىٰ ، وَقالَ بَعْدَ أَنْ رَبَتَ عَلىٰ كَتِفِ الابْنِ الْحَيْرانِ :

وَمَنْ قالَ هَذا يا حَبيبي ؟! العيدُ لِكُلِّ الصِّغارِ ، وَالْفَرْحَةُ مِنْ حَقِّ الْجَميعِ خِلالَ أَيّامِهِ ..

وَمِنَ السُّؤالِ ما يُحَيِّرُ

. . وَظَنَّ الْأَبُ أَنَّ الْأَمْـرَ قَـدِ انْتَهى ، وَأَنَّ الصَّغيرَ لَنْ يُلاحِقَهُ بِوابِلٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ الْإِجابَةُ عَلَيْها .. وَجاءَ السُّؤالُ الثّاني إِنْذاراً مِنْ غَيْرِ تَصْميمٍ :

فَلِماذا إِذَنْ يـــا أَبي لَمْ أَرَ في بَيْتِ الْجارَةِ حَـــوائِجَ الْعيـدِ مِنَ الْحَـلْوى وَالثِّيابِ الْجَديدَةِ وَاللُّعَبِ الْحُلْوَةِ؟ وَلِمَ كانَتْ أُمّي في زِيارَةِ أُمِّ نُعْمانَ في هَذا الصَّباحِ؟

وَفي هَذِهِ اللَّحظـاتِ كانَـتِ الأُمُّ قَدْ أَخَـذَتْ بِيَدِ الصَّغيرِ تُهَدِّئُهُ قائِلَةً: دَعْ أَباكَ يا أَيْمَنُ كَيْ يَرْتاحَ قَليلاً، فَهُـوَ بِحـــاجَةٍ إِلى الرَّاحَـــةِ بَعْــدَ عَمَلِ نَهارٍ كـامِلٍ ، وَأَنْـــتَ لَمْ تَتْرُكْـهُ يَجْلِسُ حَتّى الْآنَ مُنْـــذُ أَنْ دَخَلَ إِلى البَيْتِ . . أَوَهَـذا اسْتِقْبـالُ الابْـنِ الخَـلوقِ لِأَبيـهِ عَلى غَـيْـرِ عادَةٍ ! !؟

مُتطلَّباتُ الحياةِ لا تَنْتَهي

. . وَهَمَسَ الْأَبُ في أُذُنَيْ زَوْجَتِهِ مُسْتَفْسِراً :

أَوَقَـدِ اصْطَحَبْتِهِ مَعَكِ يـا أُمَّ أَيْمَنَ ؟ ! أَلَمْ نَتَّفِقْ عَلى . . فَقاطَعَتْـهُ الزَّوْجَةُ بِنَظَراتٍ فيهـا المَعْذِرَةُ عَمّا حَدَثَ . . وَكَـأَنَّها تَقولُ: لَقَـدْ لَحِقَ بي عَلى كُرهٍ منِّي، وَرَفَضَتْ جارَتُنـا أَنْ يَعودَ إِلا بَعْـدَ انْتِهاءِ الـزِّيارةِ ، وَمُنْـذُ أَنْ عـادَ مَعي وَدَخَلْنا الْبَيْتَ وَهُـوَ يُـلاحِقُني بِأَسْئِلَةٍ جَعَلَتْني قَلِقَةً وحـائِرَةً مَعَ حَيْرَتِهِ . . وَالْحَمْدُ للهِ أَنَّكَ أَتَيْتَ الْآنَ ، وَبِـإِمْكـاني أَنْ أُريحَ سَمْعي قَليلاً . . وَأَلْتَمِسُ لَدَيْكَ العُذْرَ ثانِيَةً عَلى ما حَصَلَ .

أَمّا بِالنِّسْبَةِ إِلى أُمِّ نُعْمانَ وَأَوْلادِهـا ، فَكَما كانَ تَوَقُّعُنا مَساءَ أَمْـسِ . . اَلْعيدُ بَقِيَ عَلى قُـدومِهِ سِتّـةُ أَيّامٍ ، وَالْأُمُّ تُخْفي عَلى صِغـارِهـا دونَ فـائِدَةٍ ، وَراتِبُ زَوْجِها ـ رحمهُ اللهُ ـ لَمْ يَعُدْ يَكْفي الطَّعامَ وَالشَّرابَ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذينَ آمَنوا .. ؟ ﴾

.. هَزَّ أَبو أَيْمَنَ رَأْسَهُ مُتَأَوِّهاً ، يكْتُمُ حَسْرَةً دَفينَةً مُنْذُ ثَمانِيَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ قالَ وَقَلْبُهُ يَدْعو اللهَ :

أَما آنَ الْأَوانُ يا رَبّاهُ أَنْ تَلينَ قُلوبُ الْجيرانِ الآخرينَ، فَيَعْرِفَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنَّ في حارَتِهِ جاراً ماتَ عَنْ ثَمانِيَةِ أَطْفالٍ في أَوَّلِ الْعامِ ، وَها هُوَ ذا الشَّهْرُ التّاسِعُ - رَمَضانُ - أَوْشَكَ عَلى الوَداعِ ، وَالْأَطْفالُ تَعوَّدوا قَبْلَ وَفاةِ أَبيهِمْ أَنْ يَرَوا الْعيدَ مَرَّتَيْنِ كُلَّ عامٍ ، حَيْثُ كانَ يَقْطَعُ عَنْ فَمِهِ وَفَمِ زَوْجَتِهِ كُلَّ اللُّقَيْماتِ الطَّيِّبَةِ حَتّى يُوَفِّرَ لَهُمْ ما يوقِفُ بِهِ حُزْنَهُمْ ، وَيُدْخِلَ بَعْضَ السُّرورِ إلى قُلوبِهِمْ ..

أَلَمْ يأْنِ يارَبِّ لِلْجيرانِ أَنْ يَضَعوا أَيْديَهُمْ في يَدي !

اللّهُمَّ افْتَحْ على قلوبهمْ ، فَإِنّي أَخافُ نظراتِهِمْ إِنْ أَنا فاتَحْتُهُمْ بِذَلِكَ ..

.. حَتّى تُنفِقوا مِمّا تُحِبّونَ

.. اَلْحَمْدُ للهِ عَلى كُلِّ حالٍ ، فَأَبو أَيْمَنَ لَمْ يُقَصِّرْ فِي مَدِّ يَدِ الْعَوْنِ وَحْدَهُ عَلى الرُّغْمِ مِنْ قِلَّةِ ذاتِ اليَدِ وَصِغَرِ دَخْلِهِ الشَّهْرِيِّ ، وَيَشْهَدُ اللهُ أَنَّ أُمَّ أَيْمَنَ أَيْضاً لَمْ تَدَّخِرْ جُهْداً، وَلَمْ تُوَفِّرْ دُعاءً لِكَيْ تَجْعَلَ حَياةَ أَبْناءِ الفَقيدِ وَأُمِّهِمْ أَقْرَبَ إِلى السَّعادَةِ ما أَمْكَنَها .

وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مِنَ الْجيرانِ حَتّى يَوْمِهِمْ هَذا بِما يَحْصُلُ وَيَجْري ، فَكُلُّ ما تَمَّ مِنْ مَعونَةٍ بَيْنَ البَيْتَيْنِ كانَ سِرّاً بَيْنَ أُمِّ أَيْمَنَ وَزَوْجِها ، وَإِنَّ الصَّغيرَ أَيْمَنَ قَدْ رَأى الْيَوْمَ دونَ أَنْ يُدرِكَ حَقيقَةَ الأَمْرِ . رَأَى وَجَباتٍ مِنَ الطَّعامِ الطّازِجِ وَالشَّهِيِّ تَنْتَقِلُ مَسْتورَةً وَساخِنَةً . . اللَّهُمَّ فَاقْبَلِ العَمَلَ خالِصاً لِوَجْهِكَ الْكَريمِ . .

« .. ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »

.. يومٌ آخَـرُ مرَّ ، فَأَصبحَ العيدُ أَقـربَ ، والغُصَّةُ أَشدَّ مَرارةً ، وَلَوْ أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ أَنْفَقَ عُشْرَ ما أَعطى أحدَ أبنائِهِ ، وجُمِعتْ صَدَقاتُ عَشْرِ بُيوتٍ في يَدِ أبي أيمنَ ، لاشْتَرى لِلْيَتامى بِها أَحْلى الثِّيابِ وأَطْيَبَ الحَلْوى . .

وَإنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ وَحْدَها لَوْ تَمَّ إِحكامُ إخْراجِها وَصَرْفِها لَقَضَتْ على الفَقـرِ وَسَدَّتْ أَبوابَـهُ ، بدْءاً مِنْ بَيْتِ الفَقيدِ أَبي نُعمانَ ، وَلَجَعَلَتْ أَيّـامَ العيدِ بَلْ وَأَيّامَ السَّنَةِ كُلَّها مزدانـةً بِالغِبْطَةِ والبِشْرِ والسُّرور .. ناهيك عَنْ مالِ الزَّكاةِ ونفَقاتِ الصَّدقاتِ الأُخْرى .

وَلَوْ أَدْركَ النّـاسُ واجباتِهِمْ لَعَلِمـوا أَنَّ « في المالِ صَدَقَةً سوى الزَّكاة » ، وَأَنَّه مَنْ باتَ شَبْعانَ وجارُهُ إلى جَنْبِهِ جائعٌ وَهُوَ يَعْلَمُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ حقّاً . .

شَتانَ بَيْنَ مائِدَتَيْنِ

. . وَلَعَمْرِ الحَقِّ . . إنَّ أَيّامَ العيـدِ وَما يَسْبِقُها من اسْتِعداداتٍ ، لَتُظْهِرُ الشَّبَعَ وَالفاقَةَ في أوضَحِ الصُّورِ ، وَإِنَّ غيـابَ الفرحَـةِ في العيدِ لِمَنَ الجوعِ والفقـرِ لا مَحالَةَ . . وَالصِّغـارُ مـا ذنبهمْ أَنْ تكبُرَ أحلامُهُمْ في الهواءِ كَفُقاعاتٍ زائغةٍ وزائفةٍ ! !

اللَّهمَّ سترَكَ الذّي لا ينكشِفُ ، رَبَّنا كما آوَيْتَ حَبيبَكَ مُحمَّـداً في صِغَـرِهِ ، وأَيّـامَ يُتمِـهِ ، فاجْعَلْ لأَيْتــامِ أبي نُعمانَ بسمــةً في بَيْتِهم وفي قبرِ أبيهِم معــاً ، فَــأَنْتَ الجوادُ ولا جــوادَ غيرُك . . اللَّهمَّ ارحمْهُمْ بِغِنـاكَ ، وأغْنِهِمْ بـرحمَتِك ؛ فالعيـدُ بعـدَ رمضانَ فِطرٌ وفرحـةٌ ، فلا تَجْعَلْ فِطرَهُم وفرحَتَهم على مائدةِ الحرمانِ والسّؤالِ ، اللَّهمَّ إنّهُم لم يَمُدّوا الْيَدَ إلا إِلَيْكَ ، فلا تدَعْهُم يَمُدّونَها لِغيرِكَ .

اِدفعْ بِهِ فقرَهُم

.. وجاءَتْ ليلةُ القدرِ تكلّلُ هذا الدُّعاءَ وتنيرُ له الـدّربَ للصّعودِ إلى رَبِّ السّماءِ دون حجابٍ. ولِيَرْجعَ مـع البشرى يسكُنُ صـــــدرَ أُمِّ أيمنَ.. طـوبىٰ لها على هَـذا الهاتـفِ الـذي رنَّ في قلبِهـا، وأكــرِمْ بــالحلِّ الجليلِ الـذي يــدلُّ على الأَثَــرةِ والحُبِّ!! وإنّهُ لَنِعْمَ الرأيُ يصدرُ عنِ المرأةِ المؤمنةِ:

يا أبا أيمنَ.. هاكَ هذا العِقْدَ الذي اشترَيتَهُ لي أيّام الْعُـرسِ، بِعْهُ في السّـوقِ، وانْظُرْ في القـائمةِ التّي رسمْتُهـا وأَعْــددْتُها، واشْترِ لكلٍّ مِنَ البنـاتِ والصِّبيانِ ما يُناسبُ مِنَ الثِّيابِ والحذاءِ والألعابِ، ولا تَنْسَ أُمَّهم يا أبـا العِيالِ، ولا أَراكَ نـاسِياً عُلَبَ الحلوى وقليلاً من اللَّحمِ وما يكفي أيّامَ العيدِ من الطَّعامِ.

أحلىٰ قيام ليلٍ

. . وَأَصَرَّت أُمُّ أيمنَ على رَأْيِها أمامَ تردُّدِ الزَّوجِ، وأَكْبَرَ فيها أبو أيمنَ هذهِ الـرُّوحَ الطّاهرَةَ ، وَنَزَلَ إلى السّوقِ الـذي كان مُبْتَهجاً يُلَبّي حاجـاتِ النّاسِ ، ولا يُغْلِقُ أَبوابَهُ في تِلكَ اللّيالي السّاهرةِ . .

وتَنَقَّلَ فاعلُ الخيرِ بِثَمَنِ عِقْدِ زوجتِهِ وهو يُمَنّي النّفسَ أَنْ ينتقيَ أَحلى الثّيــابِ ، وَأَشْهى الحلـــوى والشّرابِ، وأَطْيَبَ الطّعامِ مِنْ خُضْرةٍ وفاكهةٍ وَلَحْمٍ.

ووجـدَ صعـوبةً كبرى في جمع هـذا كلِّـهِ ، وفي ساعاتِ اللّيلِ الباقيةِ . . وكـمْ كانَتْ فَرْحَتُهُ عظيمةً حينَ أَنْهى كلَّ أَعمالِ الشِّراءِ قُبَيْلَ أَذانِ الفجــــر . . وشكرَ اللهَ أَنْ أَعانَـهُ على قيام ما بَقيَ مِنْ ليلةِ القدرِ في شِراءِ الفَرْحةِ وتوزيعِها معَ جُنحِ اللَّيلِ الأَخيرِ . .

.. فهوَ خَيْرٌ لَكُم

. . هيّـا يا أُمَّ أيمنَ .. اطْـرُقي البـابَ علَيْهِم بِلُطْفٍ، وسلِّمي الأَغْـراضَ كلَّهـا لأمِّ نُعمانَ ، ثمَّ انْصرِفي عـائِدَةً ، ولا تَلْتَفِتي وراءَكِ ، ولا تُحْدِثي ضَجيجاً . . وأنتِ أَهْلٌ لِلْخيرِ كلِّه ، ولأَنْ تؤجَري على صنيعِكِ الخفِيّ ، باركَ اللهُ بِكِ وبِعَمَلِكِ ، وعَوَّضَكِ القرْشَ مائةً وَأَكْثَرَ ، واللهُ يضاعِفُ لِمَنْ يشاءُ . .

لقدْ كانَتْ ليلةً خيراً مِنْ أَلفِ شهرٍ حقّاً . . في أَجْرِها ونورِها وما تمَّ فيها بعيداً عن أَعيُنِ الجيرانِ وأَلْسِنَتِهِمْ . .

وإنَّ اللهَ لَيَبْتَسِمُ لِلْيَدِ التي تُنْفِقُ سِرّاً وخِفْيَةً ، دونَ أَنْ تَعْلَمَ اليَدُ الأُخرى ، ويالَعَظَمَةِ اليدِ اليُمْنى إِنْ كانَتْ مِثلَ يَدِ أُمِّ أيمنَ . . !

.. حتّىٰ مَطْلَعِ الفجرِ

. . ولا تسألْ أيُّها الكونُ عَنْ فرحةِ نُعمانَ ووجدانَ وبقيّةِ الإخوةِ الثمانيةِ بلْ عنْ فَرْحَةِ الأُمِّ التي فَرِحَتْ ثلاثَ مرّاتٍ معاً : لأَنَّ أَوْلادَها فَرِحوا ، ولأَنَّ العيدَ صارَ في بَيْتِها ، ولأَنَّها سَتَلبسُ الجديدَ وتأكلُ الطَّيِّبَ مثلهُم . .

كَمْ أنتَ كريمٌ يا ربّ . . ألفُ شكرٍ في سجدةٍ لكَ ، سبحانَكَ يا ذا العطاءِ والفضلِ والمنّةِ ، أنتَ السّلامُ في ليلةِ السّلامِ وشهرِ السّلامِ وعيدِ السّلام . . فاخْتِمْ لنا بالسّلامِ . . .

وسلّمِ اليَدَ التي أَنْفَقَتْ هذا كلَّه في سبيلِكَ . . وأَوْصِلْ ابتسامَتَنا إلى عبدِكَ الذي انتقلَ إلى رحمتِكَ ، وقُلْ لهُ : إنَّ زوجتَكَ وأولادَكَ في رِعايةِ الكريمِ يا أبا نُعمانَ . . اللَّهمَّ لا عطاءَ إلا عطاؤُك ، فَلَكَ الحَمْدُ على ما أَعْطَيْتَ . .

أيُّهما صاحِبُ الأجرِ ؟

. . وأقْبَلَ العيدُ نفسُهُ فرِحاً أكثرَ من ذي قبلٍ ، وأطرَقَ الجيرانُ الآخرون رؤوسَهُمْ خجلاً لَمّا رأَوْا أنَّ أَولادَ الفقيدِ في حُلَّةٍ جديدةٍ ، يُمسكونَ باللُّعبِ الجميلةِ ، ويتناولونَ أطايِبَ الحلوى . . لقد أدركَ الجيرانُ أمراً واحداً جعلَهُمْ يطرقون الرؤوسَ على هذه الصورةِ :

إنَّهم رأَوْا فرحةً منْ نوعٍ جديدٍ تصرخُ في وجوه البُخلاءِ ونفوسِ الشحِّ والبَطَرِ المقْرفِ . .

أما عنْ أبي أيمنَ وزوجَتِه وابنِهما فحدِّثوا عن النّورِ الذّي غمرَ وجوهَهُم ، والبِشْرِ الذي طفحَ على محيّاهُم على استحياء . .

اللهم أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، واجعلْ في كلِّ سُنبلةٍ أجرَ مائةِ حبةٍ . .

كلُّ يومٍ عيدٌ

.. حتّىٰ المقابر ، فَقَدْ شاركَتْ أبا نُعمانَ فرحَتهُ وَسَطَ التّرابِ .. وكانَ العيدُ عيدين ، عيدَ الفِطرِ.. وعيدَ الجودِ والكرمِ والصدقةِ والإِحسانِ.

وركبَ الصِّغارُ مع أيمنَ في الأرجوحةِ مرّاتٍ ومرّاتٍ . . واشتروا من هنا وهناك . . وأحسُّوا أَنَّهم مَلَكوا الدُّنيا ومَنْ فيها . . كلُّ هذا لأَنَّ بَيْتاً واحداً شعَرَ بفقرِهِمْ قبلَ ثلاثةِ أيّامٍ ، فكيفَ لَوْ كانَتْ كلُّ البيوتِ مثلَ بيتِ أبي أيمنَ ؟ إذَنْ لكانَتِ الدّنيا تعيشُ كلَّ يومٍ بلْ وكلَّ ساعةٍ عيداً ذا طعمٍ خاصٍّ . . .

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ... ﴾ .

صدر حديثاً عن

دَارُ الهُدَى لِلنّشرِ وَالتّوزيع

لأحبتنا الناشئة :

السلسلة القصصية :

حِكَايَاتُ ذَاتُ عِبَرٍ



سبعة يظلهم الله

٧

ورجل ذكر الله خاليا

ففاضت عيناه

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع



« ..وعَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ »

.. منذُ نُعومةِ أظفارِهِ كانَ يقرأُ بينَ الأحاديثِ النبويَّةِ الشريفـةِ حديثاً حبَّبَ إليـه السؤالَ أكثرَ مِنْ مَـرَّةٍ ، ولمّا سَمِعَ الحَدِيـث نَفْسَـهُ عَلَى لِسَـانِ خطيبِ الجُمُعَــةِ . كَــادَ أنْ يقفَ بينَ جموعِ المستمعينَ ليسألَ الخطيبَ :

وكيفَ تبكِي العينُ دونَ أَلَمٍ ؟ . إنَّهُ لَيقـولُ هَذَا وقـدْ عَـرفَ متى يبكِي الطـالِبُ فِي الصَّفِّ ؟ ومتَى يبكِي الإنســانُ فِي البيتِ ؟ أَوليسَ الألمُ الشَّـديـدُ الـذِي يحسُّه الصَّغيرُ مـدعاةً للبُكـاء ؟ وهَلْ يبكِي الكَبيرُ إلا عندما يَفقدُ أحدَ أقاربِهِ وأفرادِ أسرتِهِ ؟

وكثيراً مَا حاولَ أنْ يبكِيَ مِنْ غيرِ سببٍ يُدْرِكُهُ، لكنَّهُ باءَ بالفَشَلِ فِي جميعِ محاولاتِهِ البريئةِ.

ما أَحْلىٰ عَالَمَ الصِّغارِ !

.. وعـادَ إلىٰ البيتِ لِتَـزفَّ إليهِ أختُهُ بشـرى ولادَةِ الهـرَّةِ ـ يَـاسَمين ـ لقَـدْ وضعتْ أربعـةَ توائِمَ رائعـةَ الجمالِ والبهـاءِ . وحاولَ أنْ يمسحَ بيَـدَيْهِ النـاعمتَيْنِ ظهـرَ كلٍّ مِنَ الصِّغـارِ والأُمِّ . . فلَمْ يجدْ مـا يمنعُـهُ ، وأحسَّ أنَّ الدُّنْيا كلَّها قدْ فرِحَتْ مَعَهُ .

وشَعـرَ كأنَّ كُلَّ مَنْ حَـوْلَـهُ يهنِّئُ هِـرَّةَ البيتِ مَعَـهُ ويَطْمَئِنُّ عَنْ صِحَّتِهـا ، ويسـألُها : أَلَمْ تتألَّمِي عِنْـدَ الولادَةِ ؟ أَلَمْ تـذرِفِي الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْكِ الخَضْرَاوَيْـنِ يا يــاسَمِينُ ؟ وهَلْ تَسْمَحِينَ لي أَنْ أَحْمِلَ وَاحِـداً مِنْ تَوَائِمِكِ إلى المَدْرَسَةِ ؟

لا تخافي فأنا عاقِـلٌ وفِي الصَّفِّ السَّادسِ ، أُرِيدُ أنْ يرَى رُفَقَائِي كُلُّهُمْ مَا تَصْنَعُهُ قِطَّتُنا مِنَ الروائعِ .. إنَّكِ رائعةٌ، وقـدْ ازددْتِ محبَّةً فِي نفـوسِنا جَميعـاً بعدَ مجيءِ أولادِكِ إلى العالَمِ . .

شِفاءً وَعَافِيَة

. . وقُبيلَ الفجـرِ بســاعتينِ استيقظَ الصَّغيرُ قَلِقاً ، فلقـدْ سمعَ أصواتَ القِطـطِ الصَّغيرةِ ، سارَ معَ ضوءٍ خافتٍ بعـدَ أنْ غادرَ سريرَهُ ، واقتربَ مِنَ الصُّندوقِ الذي تجْلِسُ فيهِ الأُمُّ معَ صِغارِها .

لَقَدْ وَجَـدَ التَّوائِمَ تتدافَعُ مِنْ أَجْلِ الرّضـاعَةِ ، فـابتسمَ وأدركَ أنَّ المواءَ قدْ صـدرَ عَنِ الصُّنْـدُوقِ بعدَ ألمِ الجوعِ . . إذاً . . المواءُ نداءٌ أو بكاءٌ أو تعبيرٌ عَنْ هَـذا الأَلَمِ . . مسحَ بِيَـدَيْـهِ بـرفقٍ على الشَّعـرِ الأشقَرِ المُتَمَـوِّجِ ، ثُمَّ عادَ مُطْمَئِنّـاً بعدَ أن رأَى الأُمَّ تصلِحُ الموقفَ ، وتَتَّخِـذُ لنَفْسِهـا مكـانـاً ووَضْعـاً يُرضِيانِ صِغارَها .

ولَكِنْ ما هذا الصـوتُ الجديدُ الذي سمعَهُ فِي فناءِ البيتِ قبلَ أنْ يندَسَّ فِي فراشِهِ ثانيةً ! ! ؟

حُبُّ الاسْتِطْلاَعِ غَرِيزَةٌ

. . خـافَ باديَ الأمـرِ ، وظنَّ أنَّ شيئاً مخيفاً حقّاً قدْ حلَّ فِي البيتِ ، نظرَ إلَى ساعتِهِ فوجدَها الواحدةَ صباحـاً ، ولا يوجـدُ في غرفِ البيتِ وضعٌ مشـابِهٌ للقطّةِ ياسَمِينِ ، وهذا مِمَّا يَدْعُو الصَّبِيَّ الصَّغيرَ إلى أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَـهُ وجِسْمَهُ مَعـاً . ولَكِنْ أنَّى للجِسْمِ أنْ يحتَمِلَ غطاءً فِي أيَّامِ الصَّيْفِ ولياليهِ السَّاخِنَةِ!؟.

لا عليكَ الآنَ . . اطْـــرُدِ الخوفَ عَـنْ نفسِك قَليلاً ، وانظُرْ مِنَ النَّافِذَةِ المجاوِرَةِ لِسَريرِكَ ، علَّكَ تجدُ تفسيراً مُقْنِعاً . . هيَّا يا بشْرُ ، فطالِبٌ فِي الصَّفِّ السَّـادِسِ يَحْمِلُ الجُرْأَةَ علَى الاستِفْسـارِ عَنْ كثبٍ ، وكَما اطْمَأْنَنْتَ على قِطَطِكَ ، حَاوِلْ أنْ تَطْمَئِنَّ على البيتِ كُلِّهِ . .

﴿ قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلاً ﴾

. . الضَّوْءُ فوقَ البِرْكَةِ قـدْ أنارَ . . ولَوْ أنَّ فِي الأمرِ شَرّاً أوْ أنَّ سارقاً قدْ دخلَ البيتَ لمَا كانتْ هناكَ حاجةٌ إلَى النُّورِ ، وهذَا مِمَّا يجعلُ أوَّلَ خيوطِ الطُّمأنينةِ تسري دونَ استئذانٍ فِي نفسِ صـاحبِنـا . . وتَـدفَعُـهُ إلَى أنْ يقتَرِبَ مِنَ النّافـذةِ أكثرَ وأكثـرَ والغطاءُ ما زالَ طَـرَفُهُ فِي يدهِ احتياطاً لِكُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ . .

نظرَ ، ثُمَّ فركَ عَيْنَيْهِ جيِّـداً ، وأعادَ النَّظْرةَ مَرَّتَيْنِ ، يَا للغرابَةِ ! ! إنَّهُ والدُهُ يحمِلُ منشفَةَ الوُضوءِ ، ويقتَرِبُ مِنَ البِرْكَةِ ، وينحني عَلَيْها وهُوَ يذكُرُ اللهَ ويُسمِّي باسمِهِ .

قبلَ دقيقةٍ نظـرَ فِي السّاعَـةِ وها هُوَ ذا يعيـدُ النظرَ فِيـها ، إنَّها مازالَتْ لَمْ تفارِقِ الواحِدَةَ بكثيرٍ ، وهذا يعني أَنَّ الفجْرَ لَمْ يُؤَذِّنْ ، ولَمّا يَحِنِ الوَقْتُ لِكَيْ يَأْتِيَ أَبوُهُ فيوقظَهُ كعادَتِهِ ! !

عُسْرُ الفَهْمِ لا يَطُولُ

. . حدَّثَتْهُ نفسُـهُ أنْ يَخْرُجَ إلى أَبِيهِ ويسألَهُ ، لكنَّ المنظرَ كانَ مِنْ بعيدٍ أقلَّ كِلْفَةً وأيسرَ على النفسِ . .

مـــاذا سيفعـــلُ أبـــوهُ تُـــرى ؟ أَنَسِيَ أنْ يصُلِّيَ العِشـاءَ قَبْلَ النَّوْمِ ؟ أمْ إِنَّـهُ يُـرِيدُ أنْ يأكُلَ قَلِيـلاً مِنَ الطَّعامِ ، ليَصُومَ نهارَهُ مِنَ الغـدِ كما كانَ يفعلُ فِي أيّامٍ مَضَتْ ؟ . على كُلِّ حـالٍ ، الرُّؤْيا سَتُـذَلِّلُ كُلَّ عَسِيرٍ فِي الفَهْمِ . .

الأَبُ يُشمِّـرُ عَنْ ساعِـدَيْه ، ويَنْحَنِي أكثـرَ على ميـاهِ الْبِرْكةِ يَغـرِفُ منها ويتـوضَّـأُ وضوءَهُ للصَّـلاةِ ، ويستقبلُ القِبلـةَ بعـدَهَا تحتَ شجـرةِ الليمـونِ التِي عانقتْهـا بعضُ أغصانِ الياسمينةِ الصفـراءِ ، وقدْ رآهُ ابنهُ منْ قبلُ يصلِّي سنَّـةَ الوضـوءِ ركعتينِ اثنتينِ ، فلا غرابةَ فِي صلاتِهِ حتَّىٰ الآنَ . .

صَلاَةٌ بلاَ إِقَامَة

. . قامَ الأَبُ بَعْدَها وكَبَّرَ للصَّلاةِ مِنْ جديدٍ ، يبـدُو أنَّ سِرّاً فِي صـلاتِهِ هـذِهِ طـالما أنَّها مِنْ غيرِ إقامـةٍ ، فإنَّها ليستْ صلاةَ الفريضـةِ ، وبما أنَّهُ لَمْ يتسـحَّرْ فإنَّ اسـتيقـاظَـهُ لأمـر لـمْ يسـتيقِظْ لَـهُ ـ الصَّغيرُ ـ مِنْ قَبْلُ . . وطـالَتِ الرَّكْعَـةُ الأُولَى ، ولَمْ يَرْكَعِ المُصلِّي حتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ . .

لاَ بُـدَّ إذاً مِنَ الإنْصَـاتِ لِمَا يَقْـرَؤُهُ ، ولاَ تُغْنِي المعرفَـةُ السريعَةُ وعَنْ بُعْـدٍ كَما يفعلُ بِشرُ ، وهذَا مِمَّا دعـاهُ أَنْ يَتحَرَّكَ بهدوءٍ وخِفْيَـةٍ ، ويَفْتَح باب الغرفـةِ ، ويقفَ بالقربِ منَ اليَاسَمينَـةِ يَنْظُرُ إِلى أَبيهِ والدهشَةُ تَملِكُ عليـهِ فؤادَهُ . . لقد قرأَ الكثيرَ مِنَ الآياتِ ولَمْ يركَعْ . . ما هذهِ الصَّلاةُ يا رَبُّ ؟!

ما أطولَهُما مِنْ رَكعتَيْنِ ! !

. . نصفُ ساعةٍ ويَزيدُ ، توقَّفَ الأَبُ عَنِ القراءَةِ ، واستعدَّ للرّكوعِ . . وأيُّ ركوعٍ ! ! لو أحبَّ بِشْرٌ أَنْ يصلّي صلاةَ العِشاءِ كاملةً لما احْتاجَ للزّمنِ الذي استغرقَهُ الركوعُ ! وَتَعِبَ بِشْرٌ مِنَ الوقوفِ ، فجلسَ على كرسيٍّ صغيرٍ خشيةَ أَنْ يغلبَهُ النّومُ ، فالنّومُ سلطانٌ ، ولولا أنَّ الغدَ يومُ عطلةٍ عن المدرسةِ لما جاهدَ نفسَهُ بالوقوفِ والانتظارِ . .

ورفعَ الرّاكعُ رأسَهُ وحمدَ اللهَ وَدَعا دعاءً ما سمعَهُ الابنُ مِنْ أبيه في رَكَعاتٍ مضَتْ ، ثمَّ سجدَ سجوداً أطولَ مِنْ ركوعِهِ وأعادَ السّجودَ ثانيةً . . .

إنّها رَكعةٌ طويلةٌ حقّاً . . ولمْ تكُنِ الرّكعةُ الثّانيةُ بأقصرَ مِنْ أُخْتِها أَبَداً . . وما أَطْولَها مِنْ صلاةٍ ! !

ماذا سيفعلُ ثانية ؟

وسلَّمَ المُصلّي ، فـارتـاحَـتْ نفسُ الصَّغيرِ واطمأنَّتْ . . وقامَ الأبُ بعدَ التّسْليم ، وأخفى بِشْرٌ رأسَهُ قليـلاً حتّى لا يَراهُ أبـوهُ . . وظَنَّ أَنَّ الأبَ لنْ يَرْجعَ إلى مكانِهِ ، لكن ما جرى لمْ يَكنْ في الحسبانِ ، فهـا هو ذا يحمِلُ مصحفَـهُ ، ويجلِسُ على سجّادَتِـهِ مِنْ جديـدٍ ما هذا يـا أبي ؟ إنَّكَ لا تُقصِّرُ في النّهارِ بقراءَةِ القرآنِ أو صـلاةِ الفـرائضِ ، فما الذي تفعلُهُ هذهِ الليلة ؟ أمْ أنَّكَ تفعلُ هذا كلَّ يـوم وليـلةٍ وأنا لا أعلَمُ ؟ ألفُ تحيَّـةِ شُكْـرٍ للقِطَّـةِ يـاسمين ولِصِغارِها ، فقَدْ عرفَ بِشْرٌ ما لمْ يكنْ يعرفُ . .

تَشجَّعَ الصّغيرُ ، واقتربَ قليلاً مَعَ كُـرسيِّهِ دونَ أنْ يُحدِثَ ضَجيجاً . . لقـدْ صارَ المَشْهـدُ يحتاجُ إلى وعيٍ أكبرَ . .

. . أنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ . .

طَـردَ النـّومَ من عيــنيْهِ ، وأَرهفَ السَّمْعَ مِنْ أُذُنٍ صاغيةٍ . .

وبـدأَ المشهـدُ الثـاني مِنَ المَسْرَحيَّةِ ذاتِ الفصلِ الواحدِ والبطلِ الـذي لمْ يتغيرْ . وراحَ الأبُ يقرأُ مِنْ آيــاتٍ كأنَّ البيتَ لمْ يَسْمعْهــا مِنْ قبلُ ، مِنْ ســورةِ الحديدِ ، وأعصابُ الصَّغيرِ أنَّىٰ لها أنْ تكونَ كالحديدِ تحْتَمِلُ ما يجري على الرَّغمِ من النُّعاسِ الشَّديدِ ؟ !

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ . . . ﴾ ؟ .

وتـوقَّفَ الأبُ عنِ القـراءةِ ! ! ماذا حـدَثَ ؟ إنَّ جســمَهُ لَيرْتعشُ ، وإنَّ يديْهِ لترْتفِعـانِ إلى السَّــماءِ . . وإنَّ لِسانَهُ لَينْطِقُ بِكلماتٍ مليئةٍ بطعمٍ جديدٍ . .

يا أَبَتِ لن تَمَسَّكَ النَّارُ

.. يا اللهُ .. يـا غفّارَ الذّنـوبِ . لقدْ آنَ الأوانُ لأنْ أخشعَ بقلبي ولساني وجوارحي لذكرِكَ ، اللَّهمَّ لا تجعلْ قلبي يقســو أو يطـولُ عليــهِ الأمـدُ ، ولا تحرِمْني مِنَ القُـرْبِ مِنْكَ فأنـا مؤمِـنٌ يكرهُ الكُفـرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ ...

ثُمَّ أُطرقَ الـرأسُ الخاشعُ قليـلاً ، ولمْ تستطعْ أصواتُ الأغصانِ وتدفقِ نـافورةِ المياهِ أَنْ تُخفيَ عَنْ سَمعِ بِشْرٍ صوتَ البُكاءِ الصَّادرِ عنْ أبيهِ ..

وابتلَّتِ اللحيَـةُ المُتَمَـوِّجَـةُ ، وتَخَلَّلَتْ منهـا دمعتـانِ على مكانِ الآيـةِ في المصحفِ ، فقـامَ بشْرٌ مِنْ مكـانـهِ، وقادَتْـهُ قـدمـاهُ إلى طَرَفِ السَّجّـادةِ ، وأَمسكَ بالمصحفِ يسحبُهُ من بين يدي والِدِهِ وهوَ يقولُ : لنْ تَمَسَّ عينكَ النَّارُ يا أبتاهُ ..

أتسْمحُ لي بِقُبْلَةٍ ؟

.. فـوجىءَ الأبُ البـاكي بمرأى ولَـدِهِ وفلِـذةِ كبدِهِ في هذا السَّحرِ ، ولمْ تُسعفْهُ نَظَراتُهُ في فَهْمِ هذا الموْقِفِ ، فضمَّهُ إلى صدرِهِ يُقبِّلُـهُ ويشمُّ فيهِ رائحةَ الإيمانِ الخالصِ باللهِ سبحانَهُ ولسـانُهُ عاجزٌ إلا عنْ بِضْعِ كَلِماتٍ :

اللهُ يغفرُ الذنوبَ جميعاً يـا ولدي في هذهِ السّاعةِ، وإنَّ صلاةَ اللّيلِ أَحبُّ الصَّلَواتِ النّافِلَةِ إلى اللهِ ، وإنَّ قرآنَ الفجْرِ يحمِلُ أسمىٰ الذّكرِ وآياتِ الدّعاءِ.

ولمْ يتمالَكِ الصَّغيرُ نفسَــهُ ، فَبَكـى ، وشــاركَ والدَهُ في دموعٍ بَلَّلَتِ المصحفَ ثـانيةً .. ثُمَّ نظرَ في وجـهِ والـدِهِ يستأذِنُهُ : أتأذنُ لي بقُبْلَـةٍ أطبعُهـا على الرّأسِ الخاشعِ ، وبين عينينِ بَكَتا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ؟

« . . لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ »

. . ومـــا أحلاهــا مِنْ قُبْلَـــةٍ ، لا يُشْبَعُ مِنْ مِثْلِهـا أبداً ! . وانطلقَ بِشْرٌ كالسَّهمِ إلى سريرِ أمّهِ يُوْقِظُها قائِلاً : بقيَ نِصفُ ساعةٍ يا أمّاهُ على أذانِ الفجْـرِ ، هيّا لِنَلْحقْ بِـرَكْبِ الخاشعينَ . . ونُصَلِّي رَكْعَتَينِ يُحِبُّهُما اللهُ ورَسولُهُ . .

أَمْسَكَتِ الأمُّ بيَـدِ حبيبِهـــا الصَّغيرِ ، وهـزَّتْ رأسَها بعْدَ أنْ نهضَتْ واقِفةً ، وقـالتْ لهُ : أجلْ يا بُـنيَّ : ﴿ إنَّ ناشئـةَ اللّيلِ هــيَ أشدُّ وَطْئاً وأقْوَمُ قِيلاً ﴾ .

وَنطقَ أهلُ السّماءِ فَـرِحينَ ، وَغَـرَّدَتْ تـوائِمُ ياسمين مع بِشْرٍ : أبْشِرْ يا مَنْ تمْلِكُ العيْنَ الباكيةَ في جوفِ اللَّيل بظلِّ اللهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّهُ .

المحتوى

يعرض لنا مؤلف الحديث النبوي : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »

بأسلوبٍ قصصيٍّ رائعٍ جذّاب ، من خلال التاريخ ووقائع الحياة ، حتى

لكأنّ القارئ يعيش الأجواء الإيمانية التي يدعو إليها رسول الله ﷺ .

وإنّ « دار الهدى » لتفخر أن تقدم لجيل المستقبل السلسلة السباعية

النبوية « سبعةٌ يظلُّهم الله » آملةً أن يظلّنا الله جميعاً بظلّه ...

سبعة يظلهم الله

دار الهدى للنشر والتوزيع

الرياض : طريق صلاح الدين الأيوبي - غرب إدارة مكافحة المخدرات

هاتف : ٤٧٩٤٥١٧ - ٤٧٧٧٥٤٤ - ناسوخ : ... ٤٧٧١٣٩ - ص.ب : ٢٥٥٩٠ - الرياض : ١١٤٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ والسَّلامُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين.... وَبَعْدُ:

فَالسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

تَمَّ بِعَوْنِ اللهِ ثُمَّ بِمُساعَدَةِ نَفَرٍ مِن الإِخْوَةِ تَصْوِيرُ هذا الكِتابِ ومَجْمُوعَةٍ مِن الكُتُبِ الأُخْرَى, وأَعْرِفُ أَنَّ جَمِيعَ حُقُوقِ هذه الكُتُبِ مَحْفُوظَةٌ, ولكنْ عَزَمْتُ على تَصْوِيرِ هذه الكُتُبِ لِأَنَّها نادِرَةٌ في المكْتَبَاتِ وغَالِيَةٌ جِدًّا والحُصُولُ عَلَيْها صَعْبَةٌ. وأَرْجُو مِنْ نَاشِرِ هذه الكُتُبِ ومَنْ لَه حُقُوقُها أنْ يُسامِحَنِي. واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَإِنَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ وعَلِيمٌ بِنِيَّتِي.

وَأَشْكُرُ كُلَّ مَنْ سَاعَدَنِي فِي هذا المشْرُوعِ. جَزَاكَ اللهُ خيراً, وَأَطْعَمَكَ اللهُ طَيْراً, وَزَوَّجَكَ اللهُ بِكْراً, وَرَزَقَكَ اللهُ جُنْداً......

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

1431هـ



لَا تَنْسَنَا فِيْ الدُّعَاءِ